شارع الخــلا

" رواية "

الطبعة الثالثة

فؤاد حجازى

غلاف ورسوم داخلية : رفعت حجازي

(١)

لطالما سألت نفسى وأعدت السؤال، هذا الغطاء، أتحته شيء أم لا ؟. ولو كلفت نفسى جهدا ضئيلا من الفكر لعرفت الجواب. ولكنى دائما كنت أنصرف إلى ملاحظة صف عربات اليد الخشبية وهى تمتد فى شارع الخلا، تصطف بعد منعطف سوق الحدادين. وكنت أعجب لصمت العربات المغطاة فى هدأة الليل، لاتنم عنها أى حركة تشى بالضوضاء التى تصاحبها ساعة الضحى ووقت الظهيرة. كانت كل عربة من عربات الفاكهة مغطاة بغطاء سميك أصفر مغبر اللون، يقيها بطش الريح وعبث الأيدى، ويحفظها من الندى والرطوبة. وكانت الأغطية تلف بالعربة والأقفاص من تحتها محدثة مرتفعات ومنخفضات كأن بعض الصبية قد تكوموا تحت لحاف.

وكان ماحيرنى حقا هو أن هذا الغطاء لايحول دون بعض الأيدى لو أرادت العبث. ولايقطع على تفكيرى هذا إلا مرور فتاة ما، أسارع إلى تأملها وهى تسير محاذرة بكعبها العالى أو بصندلها الرقيق كأنه قد من جلاش، تخشى عليه أن يغوص فى بقايا الفاكهة العطنة وزبالة المحلات المهموكة فى المياه المرشوشة، يتكون من هذا كله خليط غرينى يغطى الشارع ويجعل السائر فوقه عرضة للشخلعة، ومخاطرة لايجرؤ عليها إلا لاعب فى سيرك. والفتاة تسخر من هذا كله، تحافظ على زينتها وهندامها، وفوق هذا وذاك تتبختر بتؤدة.

أما أنا فكثرة سيرى فى هذا الشارع قد أكسب حذائى مناعة، فقد علق به نعل جديد من أرضية الشارع، فإذا ماوضعت قدمى ثبتت ولم تتزحلق، وإن غاصت ففى لين. وعلى أية حال فالدكان الذى أعمل به يقع فى بداية الشارع وقبل الدخول فى المناطق شديدة التزحلق. بعد منعطف سوق الحدادين بقليل يتقاطع شارعى الخلا والعباسى، وفى الزاوية اليسرى لهذا التقاطع يقع محلنا الشريف وأنا لاأنتحل لمحلنا صفة ليست له، فأى شخص يرفع قامته تطالعه واجهة المحل ببلاط القيشانى الناصع البياض، خط فوقها بمادة لامعة، خضراء غامقة «عصير الشرفاء»، يحيط بالكتابة برواز من خطين متجاورين من مربعات دقيقة خضراء يانعة، زاهية، كأنها الفسيفساء البديعة فى الآثار العربية الجميلة، وفوق هذه العبارة صورة للرئيسين ناصر والقوتلى يحيط بهما علم الجمهورية، وقد مدا أيديهما يرحبان بالضيوف لشرب كوب من العصير. واللوحة من عمل فنان منصورى أعمل جهده وليس من المهم بعد ذلك أن تكون الصورة مطابقة لشكل الرئيسين، وإنما المهم أن تشير إليهما. والمعلم صاحب المحل لم يعترف بإنفصال سوريا، فترك شكرى القوتلى على حاله يرحب بالقادمين.

ورغم أن الحياة فى شارع الخلا لاتدب قبل الضحى إلا أن محلنا يفتح مبكرا جدا. وهو لايفعل ذلك لغسيل الأكواب والبنك وتنظيف المحل قبل توافد الزبائن حرصا على راحتهم، فغسيل المحل يتم عدة مرات فى اليوم، ويتم فى وجود أجدع زبون. وفى عز زحمة الشغل، كله يقف. الأكواب تغسل باللوف والصابون. ولايلتفت لأى زبون، ولو كان عاملا فى فرن ويحمل فوق رأسه مائة ماركة خبز ويستند على دراجته بصعوبة. ولو كان مسافرا ويريد أن يلحق القطار، وهؤلاء ماأكثرهم. ولذا فسر بكور المحل يكمن فى علاقاته الواسعة ونفوذه الممتد خارج نطاق

شارع الخلا، وأحيانا خاج شارع العباسى نفسه. فمحلنا مركز إستراتيجى يندر وجود مثله، من يسيطر عليه يسيطر على المنطقة بأكملها. زبائن شارع الخلا القادمون لشراء الفاكهة دائما فى حاجة إلى فكة، وهى لاتنفد من عندنا أبدا، زبائن شتا المقابل لنا ــ بقالة ومائدة لعمل السندويتشات ــ كثيرا ما يحبون تبليع الأكل بكوب مثلج من عصير القصب، وزبائن المحل الملاصق لنا يشرفوننا كثيرا بتذوق عصيرنا ريثما يفتح محلهم فيبتاعون حاجتهم من التبغ والمعسل. والمارة فى شارع الخلا كالسيل، فالشارع منطقة تتركز فيها محلات البقالة والعطارة والجزارة، والشارع يؤدى إلى منطقة المدارس على شاطىء النيل ــ أو كما يسميه أهل مدينتنا شارع البحر ــ لذا فهو يعج صباحا وعصرا بأشتات من التلاميذ والتلميذات. وبجوار المدارس تقع مستشفيات المنصورة كلها إبتداء من العيون حتى تجبيرالعظام. وروادها من الفلاحين القادمين من الجهات الأربع التى يمثلها تقاطع شارعى الخلا والعباسى، يمرون أمام محلنا فتبهرهم مثلجاتنا، فيميلون لإطفاء ظمئهم، ويأخذون فى دوارق زجاجية يحملونها هدايا لمرضاهم. أما زبائن شارع العباسى فهم كثيرون يخطئهم الحصر، من كل الطبقات تقريبا، ففى هذا الشارع تمثل كل تجارة بفرع على الأقل. فهنا كبار تجار الدخان والمانيفاتورة. وتوكيل آلات التصوير والمصورون. ومحلات الزجاج والبللور. وصالات عرض الموبيليات. وتجار الجملة للفواكه والخضروات. وتجار مخلفات الجيش. ومحلات الأطعمة الراقية تقع أول الشارع من ناحية النيل، وهى محلات الكباب وشواء الكبد، وعصير الفواكه،ومحلات الحلويات التركى كالبسيمة واللديدة المصنوعة من جوز الهند المبشور بالسكر. ومع إنحدار الشارع داخل المدينة توجد المطاعم الشعبية للفول والطعمية، وتصطف عربات

خشبية تتصاعد من أسياخها رائحة الشواء وهى تتلوى فوق جمرات الفحم المتقدة. بجوار الإسعاف تقف عربات بيع الكرشة والقلب ومخلفات بطون البهائم التى يسمونها حلويات. ويتوسط الشارع فرن لاأتبين فتحته كأنه كهف صغير، يفرخ للشارع بائعات الأذرة المشوية يجلسن على الصفين. وتجلس خلفهن بائعات المانجو والعنب والرمان يفرشن بضاعتهن وموازينهن على الأرض. وبجوارهن بائعو السكاكين والبلط، يرصونها على أرض «التلتوار» تلمع تحت وهج الشمس، وقامت خلفهم جميعا دكاكين لعب الأطفال والبخت وصواريخ رمضان والبمب والحبش، ودكاكين الخردوات.

والمقاهى على طول الشارع. فالتى تقع أول الشارع جهة النيل يرتادها الأفندية والموظفون وزوار المدينة ونزلاء الفنادق الفخمة فى هذه الناحية. وتقع المقاهى البلدية بالقرب منا، يؤمها الباعة الجائلون وحوذية الكارو والحدادون وطوائف النجارين ومبيضو النحاس والفلاحون وأولاد البلد وتجار المخدرات وصبيانهم.

كل هؤلاء الخلق الذين تموج بهم الحياة الصاخبة فى شارع العباسى، زبائن بالضرورة. فأى سائر فى شارع العباسى، ماإن يتقدم فيه حتى يصل عندنا ــ ونحن فى المنتصف تقريبا ــ يكون العرق قد بلله وأرهقته ضجة الشارع، ويكون لزاما عليه كى يستمر فى حال سبيله، أن يبل ريقه ليعينه على المساومة إذا كان قادما يتسوق، أو يعوض مافقده من عرق أثناء تجواله فى شارع لاينتهى. أو هربا من شمس الشارع الحارقة تحت تندة محلنا. وأى سائر لايستطيع ان يقاوم واجهة محلنا. رصت ثمرات المانجو فى شكل هرمى تغرى الناظرين، وفوق ثلاجة خشبية إصطفت زجاجات عصير المانجو المثلجة، وأمام البنك الأبيض يقف عامل يفرغ عصير القصب من سطل لامع مطلى بالقصدير فى شوبات زجاجية تتصاعد منها

رغاوى بيضاء كزبد البحر، ويكسر العامل بين آن وآخر لوحا من الثلج يضيف بعضه إلى العصير وبعضه إلى برطمانات المانجو والتمر الهندى الزجاجية. هذا المنظر كفيل بجريان الريق والقدوم بدون إرادة لشرب المرطبات. وكأنه لم يكف محلنا كل هؤلاء الخلق، فمنت الحكومة علينا بجعل شارع العباسى مقرا لقومسيون طبى الدقهلية، وطلاب الوظائف والتلاميذ يؤمنون عن عقيدة بفائدة عصير القصب لتنقية بولهم.

وكان لزاما على شخصى الضعيف أن يقابل بكل تواضع زبائن هذه المحلات والمارة فى شارعى الخلا والعباسى، والقادمين من جهات الأرض الأربع، ومن الشوارع الفرعية، وأن يتبسم لأهل الريف والحضر، وأن يقابل الجميع بالرضا، وأحيانا بتبادل النكات مع الظرفاء منهم، أو الدخول فى حكايات طويلة مع المعممين، والإندماج فى نقاش مع أهل البلد أظهر فيه بعض الحذق والعلم ببواطن الأمور. وكل محل فى شارعى الخلا والعباسى يقابل زبائن معينين إعتاد عليهم، فتاجر الدخان له زبونه الذى يعرف مزاجه، وبعض المحلات كتجار الأسلحة يقابل زبائن معدودين. كذلك الحال مع تجار البن وتجار الفسيخ والسردين. أما أنا فيقع على ضغط رواد هذه المحلات. أقابلهم جميعا وأحادث كل فرد منهم عن طلبه ومزاجه وأناول كلا منهم ماركة يشرب بها مايريد. وكأنما زادت الأقدار عن عمد من مهمتى الصعبة فأبت إلا أن تجعل محطة الأتوبيس قريبة منا. وليت الأمر إقتصر على أتوبيس البلد. فشارع العباسى تؤدى نهايته إلى شارع سندوب حيث كل الطرق تؤدى إلى القاهرة. وإمتداد شارع العباسى من ناحية النيل يؤدى إلى كوبرى طلخا الجديد، تعبره العربات فتجد نفسها على مشارف محافظة الغربية. وعلى إمتداد شارع كورنيش النيل من الناحيتين تمتد الطرق إلى دمياط ورأس

البر والمطرية وبقية ريف الدقهلية. وكل هولاء المسافرين يأتون إلى منطقتنا، منطقة السوق، لشراء مايعينهم على إستئناف السفر. وطبعا يكونون من السفر فى حالة من الإعياء والظمأ تسمح لكل منهم بتفريغ لترات من العصير فى جوفه.

وهكذا ألقت الظروف على عاتقى مهمة التحدث إلى صنوف شتى من الخلائق، والكلام بلغاتهم، وتشمم أمزجتهم، والتحلى بأخلاقهم والميل مع ريحها.



(٢)

قالوا لى:

– إذا كان يعوزك العيش فى هذا الشارع لازم تعرف أساطينه.

قلت وكلى حيرة:

– «إشمعنى؟!.»

أسرعوا إلى الإجابة:

– الشارع له خباياه.

قلت:

– وكيف أصل للأساطين؟!.

تلفتوا يمنة ويسرة، وبكل جد ورهبة أشاروا إلى رجل أعور.

ولما هممت بالإحتجاج لإستهانتى بهذا الأعور العجوز. سارعوا لنصيحتى:

– لاتزد.. عليك وعلى «أبو جبل.»

أما أبو جبل فرغم مايبدو عليه من وقار فلم أكد أشرع فى الإشارة إليه، حتى كان ماثلا بين يدى. وكأنه تعب من طول حفظه لتاريخ الشارع، ويود أن يتخلص مما عنده. وعلى أية حال فقد شعرت بارتياح لحديثه، ولم تمض دقائق حتى كنا أصدقاء. ورفعنا الكلفة، أناديه «أبو جبل» وأخلع عليه من الألقاب مايسر له ويشكرنى عليه كقولى له:

– زد يامعلم «الحتة.» فقت الحد ياسيد الرجال. لاتحلف بائن عليك قدها وقدود.

أما هو فلم يكن يزد عن:

- يابنى أنت لم تع هذه الأحداث، شاب صغير، كان زمان أولاد شاربين من بز أمهاتهم عيال عتر.

ثم كأنه يسخر منى:

- بص لنفسك، شاب وعظمك بائن من لحمك، جسمك خرع.

ثم برم شاربه فى كبرياء:

- أنت شنبك خط، الواحد يمسحه بأستيكة.

فلم أملك إلا أن أضحك وأراقبه وهو يدقق النظر فى بعينيه الصغيرتين. وخلته يضحك من هيئتى غير المتناسقة، فمى مكور، عيناى منتفختان، حاجباى رفيعان، يطل عليهما شعرى المفلفل الطويل، وفى وسط وجهى يبرز أنف يعلن عن وجوده.

إستمر أبو جبل:

- الشارع كان زمان أحسن شارع فى البلد، «أمال»، التفاح على أصوله، والفواكه التى عمرها ماتنزل البر تلاقيها موجودة هنا. دكاكين ورد. أنوار. شارع سهران طول الليل. شارع لاينام وأولاد الحظ كثيرون.

- لكن لم أسموه شارع الخلا.

- معك حق. لأن الشارع كان حدود المنصورة. طول بالك علىّ، وأشار بيده إلى جامع الكنانى:

- كل هذا كان فضاء. كله كان خلاء.. والعمار بدأ هنا. كله كان جنب الشارع هنا يعتبر خلاء.. أى شارع جنب شارعنا لازم يكون خلاء «أمال». لحظ الرجل أنى أنظر لعينه العوراء فأسرع بإخراج صورة من صديريته.

- أنا كنت زمان أعجبك. عينى كانت سليمة..

ولم يكد يشرع فى قص حكايته حتى حضر المعلم. سلم بأدب. جلس

مكانى وأخذ يتسلى فى العبث بالماركات. يرصها فى خانات على شكل حلقات. تارة يضعها على جنوبها وتارة على بطونها. تفقد المعلم بعينيه البنك فوجد أن عصير المانجو لم يصنع بعد. أمر أحد العمال بالتحضير لعمل وجبة المانجو. بعد قليل. نهض وعصر حبتين من المانجو وأضاف إليهما ماء حتى ملأ البرطمان، غمق لونه بقطرات من صبغة بلون البرتقال، أضاف إليه قليلا من النشا ليثقل قوامه ثم أذاب السكر ووضع الثلج. ووقف يتطلع إلى البرطمان مزهواً بعمله.

– ياسلام من يعرف يعمل الحلويات ياأولاد. لون الكهرمان. هكذا يكون شربات المانجو.

ويبدو أن السرور قد ملأ نفسه لحد الرضا فترك المحل، ولم ينس أن ينبه العمال لتعبئة زجاجات المانجو – وعصيرها أثقل قواماً من الشربات – وأكد عليهم بضرورة عمل وجبة أخرى عندما ينفد الموجود. ولما أبديت له ملاحظة تتعلق بعصير المانجو، همس فى أذنى:

– أنت هنا فى نعيم. فيه ناس لم تسمع عن حاجة إسمها ضمير، لن تصدقنى، يحطون لبن زبادى على عصير المانجو يقوم يتخن، ثم مصمص شفتيه، لغاية الآن أربعة جنيهات مصروفة على المانجو. ياناس المحل يخسر.

بعد قليل وقفت عربة الثلج، وهى عربة طويلة تشبه الزحافات الثلجية، يقودها عجوز أشيب ذو منظار طبى. صاح من حنجرة كليلة:

– نزلت فى المخزن خمس بلاطات يبقى وصل عشر.

رددت دون أن ألتفت إليه. فقد ركزت جهدى فى ملاحظة إبنته اليافعة، بيضاء كالمرمر، شعرها يحيط بوجهها كالهالة، عيناها وأنفها وشفتاها تضحك بخجل، كانت كزهرة ثلجية نبتت وسط قش أصفر أحاله سطوع

الشمس إلى أسلاك من نور. أخذت أراقب الفتاة، وأنا أعد الساعات التى ستنقضى قبل أن أراها ثانية فى ضحى اليوم التالى.
لكم يكون العمل مسليا لذيذا عندما أحتك فيه بالفتيات الجميلات.



(٢)

قال المعلم:

– أشخط فيه.

قلت:

– بح صوتى.

قال:

– أره العين الحمراء

قلت:

– غلبت وغلب غلابى.

قال:

– وأنت شفت حاجة.

ولما إستوضحته. زاد:

– العيال الوقت ممكن تتفاهم معها، قبلهم كانت فيه بهائم. ثم ضحك فبرزت أسنان لوحها الدخان:

– بهائم لايمكن تتفاهم معها.

ثم مسترسلا فى ضحكته وهو يضرب كفاً بكف علامة على إنهاء موضوع مدهش، مثيرا للتساؤل. فلما استوقفته وأخبرته بضرورة زجر العامل حندق، إستدعاه أمامى وقطب جبينه وكلمه بخشونة:

– إبعد عن الراديو.. فاهم ياولد.

ـ حاضر يامعلم.

قالها وهو يكاد يضحك، ولم لايضحك وهو يرى المعلم كما يرى الطفل أباه. يجهم وجهه ولكن يعجز عن نزع العطف من عينيه، فيخرج زجره للطفل كأنه مداعبة فى ثوب جديد لايلبث الطفل أن ينفجر لها ضاحكا. نظر المعلم إلى متوقعا نظرة رضا عما فعل، ولكنى قلت كمن نفذ ضيقه:

ـ ولايؤثر فيه.

فرد المعلم مؤمنا على كلامى:

ـ صنف لايقابل بالضحك أبدا، إشغله دائما. إعمل مانجو. هات قصبا. نظف البنك. مايلاقى عنده وقتا يماكسك.

ـ تمخط المعلم، وتحرك لسانه يبحث عن بقية البلغم، محركا شفته العليا،فانتفشت شعيرات شاربه الخشنة مثل فرشة مسح البلاط. إستأذنت عيناه فى الرحيل بإبتسامة ضاعت معالمها بين غضون وجهه:

ـ أنا راجع حالا يافوزى.

ـ خذ راحتك يامعلم.

ومال على حندق هامسا:

ـ المعلم بدير توكل على "فين".

ولم أجد فائدة من الرد على سؤال معروفة إجابته، فسكت وأنا أتجنب النظر إليه، ولما لم يأمل إجابة منى تململ شاكيا:

ـ يعنى المعلم مثل ماشفناه مثل مااختفى.

ـ أما أنت عارف لم السؤال والدوشة ؟!.

إستغرقتنى ضوضاء المحل وكاد النهار ينتصف وإنقصم معه ظهرى. فكرسى بنك الماركات عال وبدون مسند، وكأن هذه الصفات من شروطه

ككرسى للماركات. أخذت يدى تقلب فى الماركات بحركة آلية ولم يعد عقلى يتابع يدى.

ـ ماركة بصاغ.

ـ نصفين.

ـ شويتين.

ـ فكة «حتة بعشرة».

يلوح أحدهم بجنيه أمام عينى المتعبتين ويقول:

ـ نصفين فى الجنيه.

ـ تعريفتين فى صاغ.

كل هذا وأنا لا أرد بلسانى وإنما أتفاهم معهم بالإشارة. أهز رأسى علامة الموافقة أو الرفض، وأحيانا ألوح بيدى. ومع كثرة العمل تختلط الإشارات وعلى اللبيب أن يفسر. وحتى لو وجدت فى نفسى القدرة للرد على كل زبون فلن أستطيع، لأن خلفى راديو أدير مفتاح صوته إلى الحد الأقصى. فلكى يصل صوتى للزبون واضحا، على أن أزعق واضعا يدى حول فمى كالبوق ومقتربا من أذنه.

أما خفض صوت الراديو، فإحدى مشكلاتى المزمنة فى هذا المحل. تأزمت العلاقات بسببها بينى وبين حندق المصر على علو الراديو من جهة، وبين صاحب المحل الذى لم يحسم الأمر من جهة أخرى. وكادت العلاقات أن تتقطع أكثر من مرة لولا كياسة المعلم البحبوح عند اللزوم. ماإن يغفل المعلم حتى يصبح جسم حندق الذى يشبه الدب فى خفة البهلوان، وترتفع حالا يده الغليظة إلى الراديو، وحندق فى قفزاته هذه لايسمع له أدنى صوت. بخلاف مشيته العادية التى تهز الأرض، فهو ربع، قصير، له قدمان غليظتان، وجهه كوجه البلياتشو، عيناه ساخرتان،

وفمه مفتوح كالأبله، تزحف منابت شعره المهوش على جبهته الضيقة المربعة، وهو يسير مطوحا إلى يمين وشمال كأنه يمسك فى كل يد بسطل إمتلأ بدلا من العصير مادة ثقيلة. تحول حندق إلى ريشة حملها الهواء، فلم أره أمام البنك يطوح بسطل العصير. إسترحت من دقاته بقعر الشوب الزجاجى على رخامة البنك، مصاحبا ضجيج الراديو لإكمال سيمفونية للدربكة الشديدة. والراديو يساهم بنصيب كبير فى هذه السيمفونية، وهو راديو فيليبس عتيق، يدار بالكهرباء وبراعة حندق. يصاحب أغانيه وأحاديثه خرفشة تشبه طرقات حداد عصبى المزاج، أو صبى يعبث بآلة ذات صرير مزعج، وكلما علا صوت الراديو زادت طرقات الحداد. وهكذا يتكاتف الجميع لخرق طبلة أذنى وتفجير يافوخى. وإذا مانبهت حندقا إلى ضرورة خفض صوت الراديو — ليس من أجل سلامتى — وإنما لأستطيع التفاهم مع الزبائن. يفقد فجأة حاسة السمع. ومهما كررت وأعدت فبدون جدوى. ولايبقى أمامى إلا أن أنتهز فرصة يخف فيها طلب الماركات، فأنهض غاضبا لنزع الفيشة. عندئذ فقط يبتسم حندق ويأتى متمسحا كالقطط:

— أصل المحل يحب الدوشة.

— ياأخى.. الزباين نفسها بتطلب توطية الراديو.

تنفرج شفتاه بعبط شديد، وكأنه لم يسمع شيئا، وحالا يرتفع غطيط الراديو، فأنهض مسرعا لإسكاته. عندئذ يحس حندق — ولست أدرى كيف — أن غضبى قد زاد عن حده، وأنى على وشك تدمير الراديو. يترك الراديو وشأنه. ولكن ينصرف لشىء آخر يكمل به تعكير مزاجى، فهو أخصائى فى «المكننة». يدير المروحة!!.

رغم حرارة الجو وإزدحام الناس، فأنا لاأدير هذه المروحة. فمحلنا

صغير كالحق، لايسع أكثر من العصارة وعاملها. وأنا أجلس أمام بنك الماركات على الطوار بجوار بنك مستطيل أبيض يباع على رخامته العصير. ويوجد على كل من جانبيه برطمانان زجاجيان، إثنان بهما شربات مانجو والآخران تمر هندى، ثبت كل برطمان فوق حامل معدنى له بريق الفضة. وتدور داخل المحل فوق العصارة مباشرة مروحة مدلاة من السقف لطرد الذباب. وأمام واجهة المحل فوق بنك البيع مروحة أخرى مثبتة فى ذراع ممتد داخل المحل. وخلف رأسى مباشرة مروحة، وضعت على رف خشبى صغير. وهكذا الراديو وضوضاء البنك يتوليان تفتيت مخى ، وتقوم المروحة بتطييره.

- ياسيدى أوقف المروحة.

- ياأفندى تطرد الذباب. ثم إن الدنيا حر.

أشرت بإصبعى إلى أعلى:

- فوقك مروحة. مالك ومال مروحتى. ويكون شأن المروحة مثل الراديو. ماأن أدير وجهى حتى تدار بطريقة سحرية مسببة لى رشحا وإنفلوانزا، وأحس بالهواء البارد ينفذ بين ضلوعى وخلف أذنى.

إطمأننت لعدم وجود حندق، أوقفت المروحة، وإسترحت من ضجة الراديو. وفجأة وجدته أمامى، وكالشاعر بذنب - آى والله كأنى أذنبت مكثت دقيقة ذاهلا حتى إستردت جأشى. سألته مهاجما:

- دايماً تجرى وسايب البنك.

- قلت أشوف المعلم.

وعجبت كيف لم يجد المعلم مع أن عينى لم تغفلا عن مراقبة مقهى «أبو السعود». عاد حندق، عادت الضوضاء، وبدأ عزف سيمفونية الدربكة. ولم أعد أطيق الجلوس. وأقسمت بينى وبين نفسى ألا أحضر هنا أبدا.

فالإثنى عشر قرشا التى أقبضها لاتساوى وجع الدماغ. فضلا عن عملى الأصلى طول النهار وحتى منتصف الليل فى بيع الماركات. لا، لايصح هذا. والتساهيل على الله. جردت الدرج من أمواله. فهذه هى الطريقة الوحيدة كى أذهب للغداء. أما إنتظار المعلم ليحل محلى فترة الغداء فهو عبث لاطائل من ورائه. قصدت مقهى "أبو السعود" لأتأكد من عدم وجود المعلم. ولم أجده بالفعل. لقد ذهب مع أنفاس الغاب!. أشرت له بما معناه أنى ذاهب للغداء. فوافق بإيماءة. نبهته بضرورة تواجده على بنك الماركات، فبدا أنه لايفهمنى. أعطيته الإيراد وشرعت فى العد. أوقفنى بإشارة من يده. وكانت الكلمات الوحيدة التى نطق بها:

ـ خليها بالبركة.

ثم بعد برهة:

ـ إرجع بسرعة.

مشيت حانقا. كنت أود أن أحادثه مرة أخيرة فى موضوع ضجة الراديو. ولكن كيف أناقش مسطولا ؟!.



(٤)

تناهى إلى صوت عامل العصارة بصعوبة. تطغى عليه حشرجة الآله.
وهو واقف أمام فوهتها الشرهة يغذيها بعيدان القصب:

– يعونه الأكل وحده.

وغمز بعينه التى لاتكاد تبين من بين عيدان القصب التى يدفع بها إلى العصارة، والصاعدة مع دورتها قشاً. فهمت أنه يقصد «حندق» الواقف على البنك فى مواجهة الزبائن. رددت عليه بصوت حاولت ألا يسمعه حندق.

فخرج صوتى ضعيفاً كأنى أحدث نفسى:

– كلب وسخ.

ثم عدت إلى مساومتى مع مبيض النحاس الواقف أمامى، وقد قلب سحنته الملطخة بسناج الكور، وربط وسطه بحبل لم يبن من ثنية جلبابه فوقه.
حدثنى بحدة وكأنه يرقص فى وسط حلة يدعكها:

– ياأفندى.. ثلاثة قروش بياض القمع.

– لأ.. ماأقدر أصرف.. انتظر المعلم.

رد وقد أوشك غضبه على الإنفجار:

– أنت قاعد على الفلوس.. هات وقيد فى الدفتر.

ترددت لحظة. فجاء صوت حندق ينهى مااعتزمت عليه:

– يافوزى أفندى.. قرشين «بس.»

ورجعنا نساوم من جديد.

قال حندق لامباليا:
ـ إنتظر المعلم.
ورد المبيض:
ـ ورائى شغل.
وإزاء ضيقى من تدخل حندق فى شئون كنت أعتبرها من صميم عملى. قررت منح الرجل ثلاثة قروش. وبالفعل ناولته إياها وأنا ألعن فى سرى حندق والمعلم الذى جعل منه عينا علينا وعلى حركاتنا. ليحدث مايحدث. فليطردنى المعلم. هذا ماأتمناه. أن أغادر هذا المحل. الأشغال كثيرة. أقلها أجد وقتا للبحث عن عمل يكون محترما ويكون عندى وقت آخذ نفسى. وكفانى نظرات زملائى أيام الدراسة وهم يحملقون فى هنا على الكيس. لم يكن قد بقى غير عام وأتخرج. ورحت أتساءل فى غضب، لماذا مات والدى فى هذا الوقت بالذات. ألم يكن من الأفضل التأخر قليلا حتى أحصل على التوجيهية. كنت فى هذه الحالة أستطيع أن أعمل بالشهادةوأتمكن من الإنفاق على أمى وأخوتى البنات. لى ثلاث شقيقات. لو كان لى أخ واحد، كنت وجدت له عملا. وكان ساعدنى فى تحمل مصاريف البيت. أما الإثنى عشر قرشا ـ يوميتى ـ أو إن أنصفت ـ يوميتى وليلتى ـ فلست أدرى كيف تدبر بها أمى طعامنا. لعنت هذه الأسئلة السخيفة. غدا يأتى الفرج. البنات عرائس وحالا يتزوجن. وأبقى أنا وأمى. بسيطة. وأين تكاليف الزواج. يالهذه الأسئلة المتشائمة. كل عقدة ولها حلال. سنة واحدة، أستذكر، وأتقدم إلى الإمتحان من منزلى. وردْ إن شاء الله. لم أكد أسترح لهذا الخاطر، حتى شعرت بآلام ضروسى التى لاتطاق، ياه، وهل هذا وقته؟!.
عبثت يدى بالماركات فى الدرج، ثم تسللت تعبث بالأوراق والقطع

المعدنية. وكان التفكير فى مد يدى إلى الدرج يعد عبئا ثقيلا. تراءت لى هيئة المعلم، رقبة قصيرة. عينان ضيقتان أديمهما عكر بلون عصير القصب عندما يتعرض مدة للهواء فيميل لونه إلى لون الصدأ. أسنان كأظلاف الحيوان. هذه الهيئة الكريهة تردع يدى وتجعلها تقلع فورا عن إقتباس بعض أوراق النقد. وبينما أنا سارح مع أفكارى تنبهت إلى رجل شرب ومشى دون أن يأخذ بقية ورقة من فئة خمسة قروش دفعها. صحت أناديه فلم يدركه صوتى. أرسلت حندق خلفه ليعطيه أربعة قروش.

عدت لمقاييس فكرى أتمعنها. هل يستقيم فكر وهناك ألم فى الأضراس؟!. أيقنت ضرورة وضع حد لهذه الأوجاع. على الأقل كى أستطيع العمل. كنت أجلس كالتائه أعد الماركات، أتكلم بالإشارة، وحتى الإشارة تتعب رأسى الثقيل، يكاد برجها الأعلى أن يطير، وأحس نارا فى صدغى الأيسر، وألما فى عينى يجعل رؤيتها «مغلوشة»، تدمع بين الحين والحين. أما ساعة تناول الطعام فدونها أى ساعة أخرى، لهول عذابها. لابد أن أضع حدا لهذا. الذهاب إلى المستشفى. أأرمى نفسى بين يدى جزارين. وهب أن الضروس المتعبة لاتستحق الخلع ويمكن حشوها. وهل هناك تفاهم. وضحكت للخاطر الذى ألم بى، أن أصبح أهتم، أتكلم بالثاء وأنا مازلت فى سن العشرين. طردت فكرة الذهاب إلى المستشفى، فهى فضلا عن ضراوتها، ستعطلنى يوما كاملا باثنى عشر قرشا تضيع على. وفكرت فيما يشبه النكتة فى الذهاب إلى طبيب، وماذا فى ذلك، مجرد نصف ساعة ولتكن ساعة الغداء. وتستطيع أن تتفاهم مع .. ولكن أيها الحاذق من أين لك ثمن الكشف وثمن العلاج. لم تجد أقراص المسكنات التى وضعتها على أضراسى، أصابنى ضعف وقرف وأصبحت لاأحتمل جلستى، وشعرت بضيق شديد من هذا العمل، وكدت أطيح

بالماركات من أمامى وقد أصبحت لزجة بفعل تساقط العصير عليها أثناء وجودها أمام حندق وقبل نزوحها إلى فى أول النهار.

واعدت نفسى وعدا غليظا أن لاتطأ قدماى المحل ثانية. وبعد برهة، إستمهلت نفسى بقية اليوم حتى لاتضيع أجرتى. أشرت إلى خليل ليجلس محلى. وقمت مسرعا أقصد المعلم بدير فى المقهى، لأستأذنه فى تناول الغداء، سمح لى بعد أن أكد ضرورة عودتى مسرعا لأنه يريدنى.

ــ خدامك يامعلم.

ــ تحمل اليوم من أجل خاطرى.

ــ حالا أكون عندك يامعلم.

وكنت أعلم أن المعلم لايريدنى ولايحزنون. ولكن لابد مما ليس له بد، لابد من الحضور سريعا. فالمعلم يظن أن إعطائى فسحة من الوقت لتناول غدائى بمثابة إهانة له، أو أن هذا سينقص من قدره، أو بلغته هو: لايمكن يكون عندى عمال تخمنى. وهكذا يبادر المعلم، فيخم هو العمال. وآخر خمة له كانت بالأمس. طلب منى ألا أغادر المحل قبل حضوره، وشدد على عدم ترك المحل قبل حضوره، وعلى عدم ترك خليل أمام درج الماركات لأن الأولاد تضحك عليه. وأخذت أنتظر المعلم والجوع يستبد بى حتى جاوزت الساعة الخامسة مساء. وأخيرا أقبل المعلم متصنعا الجد وقال:

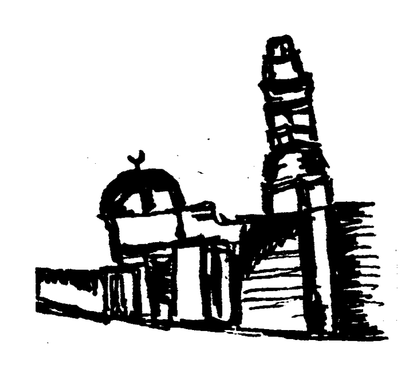
ــ تغدى هنا.

ثم تركنى.

فكرت أول الأمر أن أصبر حتى أعود إلى المنزل، ولكن نداء الجوع كان أقوى. وفضلت التضحية ببعض القروش. بصاغ طعمية ورغيف بتعريفة. لذلك ماكاد المعلم بدير ينطق كلماته لى اليوم حتى أسرعت بمغادرته.

قبل أن يغير رأيه، وهو كثيراً مايفعل، ويفضل أن أتناول غدائى بالمحل. تناولت غدائى فى لهوجة لم أحس معها للأكل طعماً، وإن أفادت اللهوجة فى تقصير نوبة وجع الأضراس أثناء الأكل.

عرجت على شارع جامع القهوجى المودى إلى شارع الخلا. وشارع جامع القهوجى يتفرع من منتصفه إلى شارعين. يستمر أحدهما حاملا نفس الإسم، يتوجه جامع الكنانى عند إلتقائه بشارع العباسى. والفرع الآخر يسمى شارع سيدى عبد القادر يتقاطع أيضاً مع شارع العباسى وإمتداده يسمى شارع سيدي ياسين والمعروف عند الناس بإسم شارع الخلا. صعدت شارع سيدى عبد القادر. وهذا الشارع يبتدأ بمطلع تقف فيه العربات الكارو، وكثيراً ماصادف توجهى للغداء ساعة الأصيل.العربات مصطفة على جانبى الطريق. وقفت الخيل وقد تراخت أعنتها، تلوك فى سلام ودعة تبنها ودريسها من مقاطف أمامها، وتساقط تحتها وخلفها «فشل» كثير، وجرت بين قوائمها قنوات من ماء ذات رائحة نفاذة. كنت أدير رأسى تجنباً لرائحتها.ثم لاتلبث عيناى، أن تنسحبا، وتتطلعا إلى الخيل فى وقفتها المتراخية، معرضة ظهورها لشمس الأصيل الهادئة.



(٥)

وجدت نفسى غارقا فى زحمة الطلب على الماركات. أحاطت الأيدى بينكى الصغير، كل يريدنى أن ألبى طلبه أولا. غطس وجهى فى الدرج وأصبحت لاأرفع عينى إلا لترى الأيدى فقط، وتلمح إيماءاتها وتسارع إلى ترجمتها إلى ماركات وفكة. وكنت فى جلستى هذه أستطيع أن أخمن مهنة الرجل، وأحيانا هويته إن كان فلاحا أو بندريا، من مجرد مطالعة يده أو حتى رؤية أصابعه. فأيدى صبية العمال القادمين من سوق الحدادين، ملطخة بسواد ثقيل، جعل فوق ظهورها طبقات من الوسخ، إكتسبت صفة الأصالة، ولايؤثر فيها الإغتسال. أيدى الفسخانية والسماكين، تعلق بها قشور الأسماك. والفرق بين هذه وتلك أن أيدى السماكين مبتلة رطبة وكأنها مبطرخة. فى حين أن الأخرى جافة حتى ولو كانت مبلولة ولونها بنى كالصدأ. وأنا أعرف هذه الأيدى من رائحتها الزفرة دون النظر إليها. أما أيدى المدرسات وأصحاب المهن التعليمية فعليها بقع من الحبر الأحمر والأزرق. بخلاف كتبة المحاكم وموظفى الحكومة، على أيديهم بقع الكوبيا. أما أيدى الفلاحين فهى غليظة خشنة. يكفى إصبع منها لتفصيل ثلاثة من أصابع أى ممرضة، تنفذ إلى أنفك من أياديهن رائحة الكحول وصبغة اليود. وكأن هذه المطهرات تبرى أصابعهن فتبدو رفيعة دائما. وكنت أستطيع أحيانا أن أعرف هواية صاحب اليد. فالرسامون والخطاطون أصابعهم طويلة نحيلة فضلا عن

أصباغها الخاصة. أما يد المقامر فهى عصبية تلح فى طلب الماركة بسرعة ولاصبر لها. أما أيدى الأفيونيين و الحشاشين فهى نحيلة معروقة مقوسة كأذرع «أبو جلمبو» أحيانا تلح لإجابة طلبها بسرعة وأحيانا تصبر وتفضل غيرها عليها.

طالعتنى هذه النماذج من الأيدى والأصابع بزحمة سببت لى إرتباكا. وأيقنت أكثر من مرة أنى لابد قد أخطأت. إما فى عد الماركات أو فى عد الفكة. ولم يتح لى إرتباكى فرصة لمحاولة التعرف على وجوه أصحاب الأيدى. بل ولم يترك لى فرصة أنتبه فيها للراديو. أو أوقف المروحة. بل لقد أحسست أنى فى حاجة إلى هواء المروحة. ولكنى لم أستطع أن ألتفت خلفى لأتبين ماإذا كانت تعمل أم لا؟. وكان مجرد النظر خلفى وهذه الأذرع تحيط بى وتخنقنى يعتبر مخاطرة. بالغت من حرصى. فملت بجزعى قليلا إلى الأمام. وزنقت الدرج إلى أعلى برجلىّ. بحيث لايفتح أو يقفل إلا بإذن من جسدى كله. وطوقت بذراعى اليسرى جانب البنك خوفا من تسلل الأيدى الصغيرة، أو الأيدى المدربة الماهرة. وشرعت اليمنى تؤدى عملها، ومع إزدياد الضغط ساعدتها باليسرى. إرتخت رجلاى وبدأت أحس أن ظهرى سينكسر. عجبت لزحمة هذا النهار، فالساعة لم تتجاوز الحادية عشرة والإيراد زاد على خمسة جنيهات، وميعاد تتمة خمسة جنيهات كان فى المساء على الأقل. فى هذه الأيام التى بدأت البرودة وبشائر الشتاء تحد فيها من الإيراد.

رحت أتساءل. ترى هل عادت أيام الصيف ثانية. كان جو اليوم حارا فعلا، ولكنى لاأظن أن هذا وحده سبب هذه الزيادة فى الإيراد. ولم يطل تساؤلى، فقد إحتلت واجهة بنكى الصغير رقبة حمار، كاد بوزه أن يلامس رأسى، ولعبت أذناه كأنه يطلب واحد عصير. رفعت رأسى لأرى

قروية تلفعت بطرحة سوداء وقد إمتطت صهوة الحمار. إبتسمت فيما يشبه الإعتذار وهى تلقى بتعريفة أمامى على البنك:

– نصفا بقرشين.

ولم يكن هناك وقت للإحتجاج، كل ماكنت أرجوه أن تنزاح رقبة الحمار من أمامى. ولما كان المنظر مسلياً ومضحكاً فقد وئد غضبى، ولم أستطع تصنع النرفزة، ولم أملك إلا أن أشير إليه راجياً إبعاده. ضربت رقبته برفق بعصاة من الحطب تحملها. وعبرت بنظرى إلى بنك بيع العصير فوجدت رءوس البهائم توشك على إحتلاله. عجل رضيع يزاحم سيدة هرولت بعيداً عنه، وبدا أنه يهم برفع برميل المانجو الزجاجى وبقرة جحظت عيناها أمام برطمان تمر هندى. وهذا قروى صغير يزاحم الناس وقد أمسك بحبلين لجاموستين وقفتا بعيداً قدر مايسمح لهما إمتداد الحبل. والناس منهما فى ذعر خشية أن تتقدما إلى البنك، لعنت يوم الثلاثاء الذى ينعقد فيه السوق حيث يأتى الفلاحون من كل حدب لبيع بضاعتهم ودوابهم.

إختلست نظرة إلى داخل المحل خشية أن يكون المعلم قد تسلل دون أن أشعر به. فمما لاشك فيه أن هذا اليوم من أحب الأيام لديه. ولكنه أتعس الأيام عندى. فجسدى يكتسب فيه خاصية زنبركية لكى يجيب طلبات العصير وزجاجات المانجو التى تفرغ فى الحلوق وترد خاوية. ولكى يتجنب ماينتج عن ذلك من رشاش ورذاذ. ومع تقدم النهار يرتخى سلك الزنبرك وتضعف حركته اللولبية، وتصبح قدرته على الحركة محدودة، فلا أستطيع تفادى بقع العصير والمانجو على البنطلون والقميص، ولاأقوى على الإهتمام بدعكها سريعاً بالماء لعلى أخفف من أثرها.. نظرت لبنطلون أيام الدراسة متحسراً. كنت أهتم به

وأكويه كل أسبوع وهاهو الآن يكاد يتساوى مع بنطلون حندق عامل البنك.

مع حلول المغرب زاد الإيراد وأصبح يربو على ثلاثة عشر جنيها. طالعت دفتر الحسابات لأرى المصروفات، فلم أجدها تزيد على ثلاثة جنيهات. أضفت إليها فى نفسى جنيها أجرة عمال، وثلاثة جنيهات ثمنا للقصب. ومن الآن حتى الثانية صباحا سيزيد الإيراد بنحو خمسة جنيهات أخرى. إعترانى سرور عظيم. فاليوم إيراده ضعف أى يوم من الأيام العادية، ويذكرنى بإيرادات أيام الصيف. أخذت أستعرض المصروفات: تمر هندى — ثلج — سكر — نشا — بياض عدة — زهور للزينة. مصروفات اليوم ضعف الأمس. وإن كنت لم أتمكن من المقارنة بدقة، لأن المعلم يمزق الورق أولا بأول، حتى لايطلع أحد على سر الدكان. وأرجح أنه يفعل ذلك هربا من الضرائب.

فكرت فى مطمح آمالى عندما أحصل على التوجيهية. وظيفة مرتبها الشهرى، أحصله هنا فى ساعات من صباح أى يوم ثلاثاء. ضحكت فى نفسى وتمنيت لو أمتلك محلا مثل هذا. كنت أرتفع بعائلتى إلى السماء، وأضرب مائة وظيفة بحذاء قديم. وساعتها لن ينظر لى زملائى فى الدراسة نفس نظرتهم لى الآن، التى ألمح فى بعضها الإزدراء وفى الآخر الشفقة. عندما أصبح صاحب محل سيتسابق الجميع للتعرف بى. ألبس ملابس حريرية هفهافة. أغير ماشاء لى من الأحذية. وأعلق ساعة بسلسلة ذهبية، ولكن هل أقلد المعلم؟!. لا، لتكن ساعة بأستيك ذهبى يبرق فوق رسغى.

عبثت يدى بالنقود فى الدرج. ترى ماذا يحدث لو أضفت عشرة قروش إلى اثنى عشر قرشا يعطينى إياها المعلم؟!. عشر شوبات

من العصير وقعوا على الأرض ياسيدى. وماذا عن عد الماركات؟!.
ياسيدى جل من لايسهو. يعتبرها المعلم غلطة. سهو فى عد النقود لأى زبون. ورقة بعشرة قروش لصقت بأخرى وناولتها لزبون. أو، الماركات أحيانا تلتصق ببعضهابعضا.لكن هل يعديها المعلم؟!. سيركز إنتباهه على باستمرار، وسيظل يراقبنى. وربما فاه بذلك للعمال، فتتحول نظرات إحترامهم لى. فأنا بالنسبة لهم أفندى، يتميز عنهم بالكتابة والقراءة، وملابسى نظيفة وعهدى قريب بالمدرسة. والمعلم يعاملنى بإحترام وعشم، ويقول عنى: «إبن ناس». الله الغنى عن هذه العشرة قروش. فجأة لمع فى ذهنى خاطر. هل يعد المعلم الماركات حقيقة. وهل عنده صبر على ذلك فى آخر الليل؟!. إن أحدا لم يره يفعل ذلك مرة واحدة. الجميع يذكرون أنه يختلى بنفسه فى المحل بعد ذهاب العمال فى الثانية صباحا. لعله فى تلك الفترة يقوم بضبط حساب المصروفات مع نقود الدرج، ثم يعد الماركات. ولكن كيف يتمكن من العد وهو مسطول؟!.

إنه يغادرنا فى العاشرة مساء بعد أن يمكث معنا ساعة أو بعض ساعة إلى مجلسه. أو يحضر أصدقاؤه لاصطحابه، واعدين إياه بجلسة من الأنس لم يسبق له أن رأى مثلها. ثم لايراه أحد بعد ذلك إلا عند التشطيب. وأحيانا لايحضر بالمرة، وتأبى أريحيته إلا أن يرسل فى طلبنا لإكمال السهرة معه، خاصة إذا كان هناك فرح. فيسر العمال لذلك ويشاركونه الأنفاس. وأقنع أنا بمراقبتهم، وإن كان تسلل الدخان إلى أنفى يخدر أعصابى. وحسبى سعادة أن أنهل من رقص غازيات الفرح، ومحاولة تعريتهن فى خيالى. ولكن من يدرى، ربما المعلم فيما يختص بالعمل يكون منتبها جدا؟!.

وعندما أردت أن أتأكد من مسألة عد الماركات، إستفسرت من أحد

العمال وقد كسيت وجهى بالسذاجة. فطالعتنى نظرات الإستنكار والريبة. الأمر الذى ألجمنى ولم يجعلنى ألح فى معرفة ذلك ثانية. وهكذا ظل موضوع العشرة قروش معلقا. وإن كان هذا لم يمنعنى من أن أتساءل عما يمكن عمله بها إذا أضيفت إلى يوميتى. أشترى رطلا من اللحم. وسيكونون سعداء فى البيت عندما أحضر لهم لحما. وإنتبهت لحقيقة غريبة. فنحن لم نذق اللحم منذ مات والدى. لاتقل نحن، بل قل هم. ألم تأكل أنت فى بيت المعلم؟!.

كنت أحيانا أذهب إلى بيت المعلم لأمر من الأمور. فإذا صادف ذلك وقت الغداء، أصر الرجل أن أتناوله معه. ويشملنى عطف رجل ابن بلد. ويجعلنى من الدهشة أتساءل. أين تذهب شمائله الحلوة التى يبديها نحوى ونحو غيرى من العمال فى منزله؟!. ولماذا تغادره عندما يحضر إلى المحل؟!. على أى حال شكرا للمعلم. فكثيرا ماأكلنا عنده أطايب الطعام. وشعرت بخجل شديد خيل لى ان وجهى إحمر على أثره. أيطعمنى الرجل فى منزله مالاأتناوله فى بيتى ثم أفكر فى مد يدى إلى ماله؟!. وظننت العمال لحظوا إحمرار وجهى، فتلفت بسرعة إليهم. كان الظلام يسرى بسرعة فى الأشياء. وملامح النهار تختفى إيذانا بحلول الليل.الجو شفاف. ولم تتضح معالم الليل الجديد بعد. وبدا محلنا تائها فى ظلمة مابعد المغرب التى تتغلغل سريعا. ويأبى محلنا أن يوقد أنواره إمعانا فى الإقتصاد.

هبت نسمة باردة إهتز لها جسدى. وأحسبها قادمة من فراغ سوق السمك البارد الواقع خلف محلنا. وخيل إلى أن رائحة الزفارة زادت من برودة الجو، خاصة وقد دعمتها رائحة ماء الفسيخ الذى يبدو أن الفسخانى القريب منا فى شارع العباسى قد ألقاه، وكأنه ينتهز فرصة الظلام

المنتشر كي لايراه أحد. وإختلط برائحة الفسيخ والسردين المعتق، رائحة البن المحمص من دكان أبو المجد المجاور لدكان الفسخاني. أخذت رائحة البن تتغلب حتى سادت في النهاية حاملة إلى أنوفنا ريحا طيبا.



(٦)

دبت الحركة مع الظهيرة بعد موات صباح الجمعة.

فأكثر المحلات مغلقة ومحلنا والمحل المقابل لنا عصير الحسين مصران على الفتح يوم الجمعة. قام عمال المحلين بالمشاغبات اليومية المعتادة. دق عمال محلنا بكعوب الأكواب الزجاجية على الرخام دقات متوالية، وتعالت هتافاتهم:

– تعال ياولد.. الحلو عندنا..

وحندق يتبختر أمام البنك، أو على الفرشة كما يحلو له أن يسميه، ويصيح فى وقاحة ضاحكة:

– أنا حندق ياولد..

ثم يميل على أذنى زاعقاً:

– أنا حندق. والنبى أنا حندق ياأفندى.

ثم بعد قليل بلهجة إستفزازية تجعل المقصود بالكلام يرميه بأقرب شئ فى متناول يده:

– إعط ثلاثة قروش لخليل يشترى تمر هندى.

فقال خليل الواقف بجوارى، فى ضيق:

– إنت عارف نهارنا الجمعة والمحلات قافلة.

حندق كأنه لم يسمع، يغمز بعينيه قاصداً «خليل»:

– لوح ثلج من المخزن.

خليل فى نفاد صبر:
- إبعث فهمى. واقف عندك على العصارة
حندق مدعياً الصمم:
- إبعث خليل بسرعة والنبى ياأفندى.
خليل يبح بصوته كما يفعل ذكر البط:
- والله ماأنا عامل حاجة.
وبعد أن رجوته، ناولته ثلاثة قروش لشراء تمر هندى جاف، إذ بحندق يفسد علينا سلامنا:
- إعط له يشترى سكرا.
نهرته زاعقاً:
- ياأخى سيبنى أتصرف. ثم موجهاً كلامى إلى خليل:
- أقه ونصفا لبرميل التمر هندى.
حندق مكملا كلامى:
- وأقه ونصفا للمانجو وأقه وربعا لبرميل الشربات.
وعندما ناولت «خليل» النقود، إستطرد حندق:
- بصاغ نشا وتعريفة ملح ليمون وصاغ لونا.
تحولت عينا خليل العمشاوان إلى، كأنما يقول: شايف. فاسترضيته وطيبت خاطره مفهماً إياه أنه لاداعى للإختلاف أمام الزبائن، وساعة الظهيرة الحارة جالبة للرزق، ولذا يجب أن يسرع. فلما أطاع وأحضر ماطلبناه. أومأ حندق بسفالة منقطعة النظير إلى خليل - والغريب أنه كان يضحك
- وقال:
- أقعد إعمل الشربات.
لم يتحمل خليل، فألقى بحمائله وغادرنا غاضباً دون أن ينبس بحرف.

وخليل أخ أصغر للمعلم بدير. ورث الصفات العكسية له. فهو نحيف بخلاف جسد المعلم الذى يتمتع بمواهب الفيلة فى الإمتلاء. محنى كخطاف اللحم ولكن فى ميل إلى جانب. شعره جاف أكرت خفيف يبين جلد رأسه. ذقنه مال فى جانب يوازى ميل عينيه إلى الجانب الآخر. وقد أفسد ميل ذقنه إستطالة وجهه. وهو فيما عدا ذلك لايظهر منه سوى قدمين طويلتين، يخيل للناظر إليهما أن بين الإصبع والآخر غشاء جلدى. يرتدى ملابس المعلم الزائدة عن الحاجة. ينتعل شبشبا يكشف عن أصابع معقوفة قذرة تشبه مخالب القط.

جلس حندق يقشر المانجو ويلقى بها (وقشرها) فى حلة أمامه، وضع عليها السكر وأخذ يدعكها، بقشرها ونواها ولحمها، حتى أخذ كل مايمكن أخذه. وكان لايتحرج من إلقاء أى ثمرة إلى الحلة، سواء سكنها الدود أو أصابها العطب. وفهمى عامل العصارة يراقبه فى تقزز. وأخيرا قال لى، والكلام لك ياجارة:

— بالزمة لو رمى المعطوبة، يخس.

حندق فى تحد صفيق:

— "شف" شغلك.

فهمى بهدوء:

— أنت دافع حاجة من جيبك.

حندق فى صفاقته الهادئة المعتادة:

— قلت "شُف" شغلك.

فهمى فى إستنكار يائس:

— ياأخى حرام عليك.

لم يرد حندق. وأحسست بحرج موقفى، وبأن الموقف يستدعى أن أقول

شيئا، وإن كنت أعلم أن حندق لن يعيرنى إلتفاتا.

وكنت قد ضقت بتجاهل حندق لى ومنازعته فى كثير من إختصاصاتى على بنك الماركات، فهو يتناقش مع كل زبون أمامى. إذا رفضت أفك، سارع ينط:

ـ هات أفك لك.

وإذا مالمح زبونا أمامى دون أن يتناول ماركة، سارع إليه سائلا:

ـ طلبات الأستاذ.

إذا أفهمته أن الرجل كان يطلب زجاجة مانجو، ولايوجد شىء منها جاهز الآن. سارع يقول كمن يلقى أمرا:

ـ إصرف إنت ماركات ومالك شأن.

ـ ياسلام.

ـ أنا على البنك أعرف أصرف.

ـ ياأخى بطل حذقك، آخرتها الزبون يرجع الماركة لما مايلاقى طلبه، وكله فوق دماغى هنا. يضحك فى «رخامة» زائدة عن الحد، ويواصل حذقه. يقوم بتوريط الزبائن. وتوريطى معهم. فكم من مرة يطلب الزبون طلبا بقرش فيعطيه زجاجة مانجو بقرش ونصف. وبعد أن يشربها، يصيح فى صفاقة:

ـ تعريفة يابك...

فإذا إحتج الرجل، نادانى حندق كالمستجير:

ـ يافوزى أفندى، خذ تعريفة من الأستاذ!!.

ضقت ذرعا بحندق. وكلما هممت بأخذ موقف حاسم من تصرفاته، أصطدم بإحتضان المعلم له. الأمر الذى يجعله يستهتر بأى أوامر تلقى إليه من جانبى. وحندق لايمارس رخامته بالنسبة لى وبقية العمال فقط،

ولكن بالنسبة للمعلم أيضاً، وإن كان هذا يتم بقدر.

إنشغلت فى الأيدى التى بدأت تتكاثر مع صعود الشمس إلى عنان السماء. وبدأت النقود تسيل مع كثرة الحركة فى الشارع، الذى كان فيه الصباح شأنه فى كل يوم جمعة يبدو ومحلاته مغلقة، كأنه حليق أقرع. ويزيد هذا من شعورى بسخافة العمل فى ذلك اليوم الذى يصبح لاطعم له. وتحل ساعة من نهار، ساعة خطبة الجمعة تخف فيها الأرجل، ويتوقف نشاط المحل تماماً. ونسمع طنين الذباب وفى تلك اللحظات أشعر برغبة شديدة فى النعاس. لكن حندق يصيح من خلفى، وهو يقدم لى كوباً من عصير المانجو:

– واحد مانجو ياأستاذ.

لاألتفت إليه. فبعد أن رأيته وهو يصنع عصير المانجو، وأنا عازف عن شربها. ضحك حندق علامة على أن نكتته قد أثمرت. قلت متجاهلا ضحكه:

– هات واحد عصير قصب.

أخذت أشربه على مهل، وأنا أتثقل الوقت مابين الظهر والعصر. فهو أثقل ساعات النهار برغم ندرة العمل. ساعات بطيئة عسيرة. إنها فترة الإنتقال بين مرحلتى الظهر والعصر، تتوقف فيها الحركة وتسكت الدنيا. ولكنه ليس سكوت الأموات، بل سكوت ترقب ميلاد، مفعم بالحر والضيق، ميلاد شئ جديد، إنبلاج العصر، ومايحمله معه من طراوة تخفف من إرهاق الجسد وتداعى النفس، وتجعلها قادرة على إقناع الجسد بتحمل مشاق السهر.

وبينما أنا جالس، جاء من دهمنى بصوت آمر، مشيراً بورقة مالية:

– فكة.

ورغم قلة الفكة، واحتياجى لها فى معاملاتى الآن، إلا أن لهجته الطاغية

قد سيطرت على، وجعلتنى طوعاً لها. وكثيراً مايحدث لى هذا، وأروح بعدها ألوم نفسى على هذا الخضوع الغريب الذى لاأعرف أسبابه ودوافعه. وأعتزم أن أكون عنيداً أو على الأقل متدبراً أمرى فى المرات القادمة. ويتصادف أن أرفض طلب الفكة، وتكون متوفرة فى الدرج، يلمحها الزبون فيلح على، ويمنعنى خجلى من المضى فى العناد. ثلة من الأصدقاء، تقف أمام البنك يتعازمون، كل يريد أن يدفع الحساب، وكلما ألقى أحدهم بقطعة من النقود أرجعها له الآخر. وأنا بينهم حائر يكاد صبرى أن ينفد. وأخيراً، حدث شئ لم يكن فى الحسبان، شئ أوقف تعازمهم، وأوقفنى أنا على قدمى معهم، وأوقف الراديو هو الآخر، الراديو الذى لاأستطيع أنا وأحياناً المعلم إغلاقه أو خفض صوته، ومن الذى يغلقه، إنه حندق بنفسه، يغلقه بنفس السرعة التى يعلى بها صوته إن لم يكن أسرع، ولكن للأسف للحظات قليلة يقف لها الشارع كله،ونكاد نحس أن كل شئ فى الدنيا قد توقف هذا الشئ..هو مرور جنازة.

ولم تكد الجنازة تمر، حتى نبع مصدر آخر للضيق. فقد هجمت على طلائع الذباب بلارحمة، ولم يجد معها إدارة ثلاث مراوح. وليس ذلك بسبب قذارة المحل. فكما سبق أن قلت المحل يغسل كل ساعة وأخرى، ويرش بالمياه، وتغسل أوانيه باللوف والصابون، وكذلك الرخام والبنك الذى يبدو دائماً ناصع البياض. وثلاجة زجاجات المانجو بلونها الأحمر الفاقع، وصندوق جمع الماركات وقد طلى أيضاً باللون الأحمر، يغسلان أيضاً. وبدت شفافية براميل المانجو والتمر هندى الزجاجية، فوق حوامل النيكل اللامعة. وتزين البنك بزهريات الورد البلدى والفل. وبدا المنظر كله كأنه عائم فى حوض من الماء الشفاف. وإذا

ماسقطت عليه أشعة الشمس بان كأنه مغلف بغلاف رقيق من الزئبق. وتنعكس صور صلف المحل الزجاجية داخل المرايا الداخلية المستطيلة. وبقايا جدران المحل مغطاة ببلاط القيشانى الأبيض، أعلاها صف من نفس البلاط بلون أخضر يانع، تحته عُلقت رسومات زيتية فى براويز لماركيزات جلسن فى استرخاء حول غدير ماء، أو لهون بين أشجار غابة سامقة. وهذه الصور يبدو وضعها غريبا وسط هذا الجو، ولكن يخفف من وقعها أنها داخل المحل، وأنها تائهة فى هذا الزحام، فلا يحفل بها أحد أو يكاد يراها. أما مصدر الذباب، فهو كنبة خشبية وضعت بجوارى. شرعت المعلمة نجية ترص عليها أقفاص العنب والجوافة والبلح الأسود. ولم يكفها أن تقف بعربتها حاجبة واجهة بقالة شتا المواجهة لنا، فجاءت تزاحمنا بهذه الكنبة. وقد عجبت لجرأتها على إرتكاب هذا العمل. فأنا أعلم من أهل الشارع أنها لاتخشى أحدا وتعمل له حسابا، قدر خشيتها من المعلم. ومع ذلك فقد أحضرت ذبابها إلينا. وقد لحظها المعلم مرارا ولم يتكلم، ولعله تجاهلها كنوع من بسط رعايته على أهل الشارع، الأمر الذى زاد حنقى على نجية هذه. وطبعا لم أجرؤ على أخذ موقف منها، فلقد كنت أخشاها حين أراها تعامل الجمهور بغلظة فما الحال لو إصطدمت بها.

كانت تقف أمام عربتها، وقد صفت أقفاص الفاكهة على هيئة مدرجات، وفرشت تحتها ورق سوليفان بمبى وأزرق، وحجبت الشمس بمظلة من قماش مقلم أحمر وأزرق وأصفر، رفعت على حوامل حديدية فى جوانب العربة. وهى أمام العربة بجسمها المكتنز، مايظهر منه أسمر كأنه معفر بالتراب، وجهها مستدير، وعيناها كعينى دجاجة مريضة، شعرها مهمل فى ضفائر غير منسقة، تُرى بوضوح من عصابة تركتها تنحدر إلى الخلف

دون عناية، وتكور جسدها مع بطنها الحبلى فى قميص أسود بدون كمين ، فوقه جلباب بكمين من نسيج كقماش الناموسية، يظهر كل ماتحته. ورقد تحت عربتها قط هادىء، يتثاءب دوما، كأنه يسخر من كل ضجة تحدثها البنت نوجة — كما يناديها المعلم — فنوجة لاتترك أحدا يشترى منها بهدوء. فهى إما تلقنه درسا قاسيا، إذا مانطق سعرا لايعجبها، وإما أن تجبره على الشراء، بإلقاء كلام محرج. وأحيانا تتفوه بألفاظ جارحة وهى تتصنع إهمال الزبون فى غضب. المهم أنها دائما منتصرة، سواء بشراء الناس لبضاعتها بالسعر الذى تحدده، أو بأخذ نصيبها من إيلامهم. والغريب أن بضاعتها أغلى من مثيلاتها عند باعة الشارع. والأغرب من ذلك أنه مازال هناك زبائن يترددون عليها.

وكلى حذر، طلبت من الست نجية أن تزيح كنبتها قليلا، بعيدا عن البنك الذى أجلس عليه. فلم تزد عن إلقاء نظرة . كانت نظرتها كنظرة الدجاجة عندما تومض عيناها قبل أن تنطفئ. وهى مقبلة على الموت. كررت رجائى إليها. وكأنما كان هذا إشارة البدء لجيش صاعق بالهجوم. أو كأنى قد أوصلت سلكا بلغم فإنفجر. لم أكد أنطق حتى صعقتنى:

— لم نفسك ياولد .

وتفوهت بكلمات من شدة المفاجأة التى أربكتنى، لاأعيها. ياولد!. أنا ينادينى العمال فوزى أفندى، تنادينى هذه المرأة، ياولد، وعلى مسمع منهم، بل على مسمع من الشارع كله. إذن لقد إنتهت هيبتى وذهب إحترامى. وهى نفسها ألم تنادينى مرارا بفوزى أفندى!. والنبى ياسى فوزى إكتب لى التسعيرة على ورقة بخط كبير — رغم أنها لاتبيع بالتسعيرة أبدا — والنبى فكة جنيه، إعطنى خمسة قروش من عندك موقتا، قل لحندق

يناولنى كوبا من الماء، وطبعا كان يحضره لها مثلجا!. نسيت كل هذا فى لحظة. بللت الصدمة جسدى بالعرق، وأصبحت كخرقة بالية مبللة بماء قذر. لو شاءت الست نجية لمسحت بى البنك. لم تكن هناك ذرة مقاومة، فبعد هذه الإهانة، من يدرى لعلها «تهفنى» دماغا يمرمغنى فى الوحل، أو يتطاول لسانها فيذهب بما قد يكون تبقى لى من إحترام. لذلك رأيت من الحكمة أن أكظم غيظى. وكأنى كنت أستطيع أن أفعل شيئا!!.

وإبان هذا الدوار الذى لحقنى، إختلست نظرة إلى عربة الفاكهة بجوار محل عصير الحسين، فلمحت البنت «لاإله إلا الله» تراقب الموقف من بعيد. ووقعت فى حيرة. ترى هل علمت بإهانتى. لاشك أنها لحظت. ولكنى لاأظنها قد سمعت كلمة «ياولد» لبعدها عنى.وأمضيت وقتا ليس بالقصير، أرجح تارة أنها سمعت وأرجح مرة أخرى أنها لم تسمع. وفى الحالين أسب نجية، وألعنها من أعماقى، داعيا الله أن يسرع بداهية تأخذها.

وجاءت الواحدة صباحا ولاأدرى كيف. تعبت من إخراج الماركات اللزجة من تساقط العصير ومياه الغسيل عليها، وإلتصاق الأتربة بها. وكنت كل صباح أنوى غسلها حتى لاتلتصق بيدى وتوسخها أثناء العمل، ولكن توافد الزبائن منذ الساعات الأولى كان يعوقنى،فأوطن العزم على غسلها بالليل، ولكن تعبى طول النهار وعدم مقدرتى الوقوف على قدمى، وزحف النوم إلى أجفانى، كان يحول دون ذلك. وإذا مافكرت فى تكليف أحد العمال بذلك، فلن يستطيع، فهم لايقل نصيبهم من التعب عنى. وهكذا كانت تمر أيام عديدة قبل أن أتمكن من تنظيفها.

ذهبت إلى منزلى ونفسى مصدودة عن أى طعام رغم جوعى الشديد.

إرتميت بجسدى المكسر على الفراش. وكان ينضح بالعرق رغم برودة الليل. أكلنى ذراعى فهرشته. لحظت إمتلاء ماتحت أظافرى بالقذارة. فركت ذراعى المخضب بالعرق، فتساقط الوسخ «مفروكا». وتذكرت أنى لم أستحم من مدة طويلة وضرورة ذلك الآن، ولكنى كنت مكدودا، لاأقوى على التحرك من مرقدى، وأثناء النهار أكون مشغولا فى المحل. منعت نفسى من الإستمرار فى التفكير، وتركتها تعمل الشىء الوحيد الذى تقدر عليه فى هذه الساعة، وهو الإستسلام لنوم عميق.

إن المعلم بالغ مابلغ من المكر والدهاء، فلم يكن بمستطيع أن يعرف سر تأخرى كل صباح. لقد أعطى أوامره أكثر من مرة بوجوب الحضور مبكرا، ونوه بضرورة تواجدى أثناء فتح الدكان، لمراقبة العمال حتى لايسرقوا ساعة الصباح. ولكن توجيهاته كانت تذهب سدى. ولم يكن الأمر ليكلفه أكثر من النظر أبعد من قدميه. إلى قدمى أنا. ولكن أنى لهذه الفكرة أن تواتيه؟!. وليس معنى هذا أن مكر المعلم هين. فمعلمنا والحمد لله يتمتع بمكر فذ. فرغم أنه حشاش والمفروض فى الحشاش أن يكون مسطولا بإستمرار. وأنه لايفيق إلا ليتدبر طريقة يعود بها مسطولا. إلا أن معلمنا يفيق ليمكر. وليدبر طريقة يسير بها مفعول مكره أثناء غيوبته. والمعلم يوهمنى، بل يؤكد لى أنه سيحضر حالا لتسلم البنك، معطيا إياى فرصة للراحة وتناول الغداء، وهو يوم يفعل ذلك لايحضر أبدا.

وليس معنى هذا أن العكس هو الصحيح، فالمعلم إستثناء، لاقاعدة تحكم تصرفاته أستطيع أن ألجا أليها فى تصريف شئونى معه. فهو يدنى فمه من أذنى هامسا بوصية ينبئنى فيها أن أعتبر المحل ملكا لى أثناء غيابه وأن لاتغفل عيناى عن مراقبة العمال وأن آخذ بالى من العدة. وكنت واثقا أن نفس الوصية تقال بصورة أو بأخرى لغيرى من العمال. ولم أكن قد رأيت أو سمعت ذلك. ولكنى كنت ألمسه فى تصرفاتهم التى توحى

بالتمكن وأنهم مسنودون من جهات عليا، ولاسيما تصرفات حندق. وفى كل مرة يأتى فيها المعلم أسمع قوله:

ـ "الشوبات" نقصت يافوزى.

والحق أنه كان محقا فى هذا، فرغم مراقبتنا لأمر الشوبات وزجاجات المانجو الفارغة، إلا أنها كانت دائما تتناقص، ولم يحد من تناقصها تهديد المعلم بخصم أثمانها من مرتباتنا، ولو فعل ماقبضنا على الإطلاق!. أقول رغم دهاء المعلم لحملى على البكور، إلا أن السبب كان تافها لن يخطر له على بال حتى لو شرب مع الحشيش خمرا. كان السبب ببساطة خرما للتهوية بحذائى، فوق إصبعى الصغير لقدمى اليمنى!. كان هذا الخرم بالنسبة لى بمثابة مزقة ضخمة، يخيل لى أن الأعين تراها وتزدريها وتحتقر صاحبها، وليست كل الأعين تعنينى. ولكن عينيها هى!.

كانت تقف أمام منزلها المواجه لمنزلنا فى إنتظار صويحباتها للذهاب إلى المدرسة صباحا. وكان يستحيل على المرور فى هذه المنطقة الحرام. رغم أنها كانت فى الماضى منطقة السعادة التى أثمل بذكراها طول النهار. كنت أخال أنها عندما تنظر إلى لن ترى منى غير حذائى المقطوع. وكنت أجاهد فى إخفائه حتى لايقع بصرها عليه ماوسعت الحيلة. ولم يكن الحذاء مقطوعا عندما كنت أواظب على المدرسة. وقد شاءت الظروف أن يتمزق فى الوقت الذى خلتها تتعمد الصد بعد أن أصبحت أعمل على الكيس. وهى طالبة ولاشك لها أحلامها. وقد بدأت الخشية تدب فى قلبى بعدما لحظت إنصرافها وثقلها فى الأيام الأخيرة، وكنا أول عهدنا متفاهمين، بل كانت هى التى تقبل على، حتى أنى كنت أقول عنها على خلاف الأغنية الشائعة، ساكن قصادى وبيحبنى. بدأت أشعر بالضيق منها، وإنتابنى إحساس بأنى لم أعد أهلا لها. ولكن ظل الأمل فى

إستئناف دراستى يراودنى، فلم أيأس بسهولة. ومما خفف فى نفسى وقع إنصرافها عنى، إنشغالى بالبنات فى السوق.

كانت البنت «لاإله إلا الله» بنت بائعة الفاكهة أمام عصير الحسين، فى السادسة عشر من عمرها، تقريباً، وعلى جانب لابأس به من الملاحة. ولم يكن يعيبها إلا سيرها حافية. وكأن ذلك يلطف مزاجها. ويكون الطين والقشف رقائق فوق ساقيها وقدميها. ولكنها والحق يقال أحيانا تكون نظيفة تماما. وعندئذ تتضح أنوثتها. وجدت نفسى مندفعا نحوها. ربما لصراحتها وعدم تصنعها الكلفة. وبعد أن كان يضايقنى سيرها حافية، أصبح هذا السبب نفسه هو الذى يدفعنى إليها. كنت أحس أنى أعلى منها، وأننى فى أقسى الحالات إذا تمزق حذائى فى أكثر من موضع فساظل منتعلا وهى حافية، أى أحسن منها. وفى جميع الحالات لن يتطلب الأمر مظهرا معينا. لذلك فقد أقبلت عليها بشغف ورضا. وربما زاد من إندفاعى رغبتى فى التعويض عن صاحبتى الأولى. وإن أزعجنى قليلا حدة وسلاطة لسانها. وكانت الفتاة أول الأمر تخشانى، ولاتستجيب لمعاكساتى. فقد كنت بين أهل الشارع من الباعة كالغريب. هم بالجلاليب والطواقى وأنا بالبنطلون والقميص. هم يعرفون كل أسرار ودخائل بعضهم بعضا، وأنا هبطت عليهم كالقادم من السماء، لايعرف أحد من أين أتيت. لذلك كانت تستجيب للعمال، تضحك لهم وتمزح معهم، ثم أصبحت بمرور الوقت تستجيب لمعاكسات حنفى — والإستجابة لك ياجارة — وكان حنفى عند مرورها لايزيد عن إبداء إستحسانه وتعجبه بقوله:

— لاإله إلا الله.

فترد عليه بإبتسامة رضا، وترشقنى بسهام من دلالها السهل الممتنع. وكنت كلما رأيتها غمزت بعينى لحنفى أن يعاكسها، فيصيح:

ـ لاإله إلا الله.

وأصبحت تعرف فيما بيننا بعد ذلك بإسم «لاإله إلا الله».

* * *

بدأ حندق صياحه، بأن أحضر إناء فخاريا رص فيه بعض «قوالح» الذرة، ثم أشعله وجاء يستعطفنى:

ـ قرشا والنبى أشترى بخورا.

ـ بطل الكلام الفارغ .. وشف شغلك.

ـ والنبى، والنبى، والنبى ياسى فوزى.

ألقيت إليه بقرش نافد الصبر:

ـ غُر .

بعد قليل وضع حندق الإناء داخل البنك، فتصاعد دخان البخور الأبيض معبقا الجو بشذاه الطيب. وتسلل الدخان إلى بنكى الصغير وإلى أرجاء المحل، وكثر الدخان وتشعب، حتى ليعجز الرائى عن تحديد مصدره، وكأنه بفعل ساحر. وسرعان ماضاع شذا بخور الصباح. وقف حصان يجر عربة كارو، وقفة استعداد أمام المحل، آنزا بقائميه الخلفيين إلى الوراء، وبدأ فى إحداث بركة ساخنة صفراء، راح نشادرها يزكم أنوفنا ويعمى عيوننا.

إنتهزتها فرصة لأذهب إلى الجهة المقابلة فى محاولة للكلام مع «لاإله إلا الله».

(٨)

يا أرض إبلعي ماعليك. ماهذه الأشكال..؟!

هذا هو نصيبك من السخرية إذا جرؤت على محادثة فتاة في شارع الخلا. فالفتيات هنا تتبعن سياسة حافة الطحو ، فالفتاة تعرض عنك، حتى إذا طحا بك فكرك، ،عادت تمنيك بالأمل من جديد، وتلمح في نظراتها نظرة أكيدة، وندم على مافات، وتظن أن الطريق مهدت وأن الخطو سهل، فلا تكاد تخطو حتى تختفي الإبتسامة، وتحاول ولافائدة، وتكاد تركن إلى اليأس، وسرعان ماتدهش لكلامها الذي يمنيك بأمل جديد!!. والكلام هنا يصدر عن أي شيء، إلا عن طريق الفم، فعيناها تتكلم، تنادي عليك، وتخبرك أن الرغبة وقعت عليك، وأنك ستجد عاطفة وحنانا، وماعليك إلا أن تبدأ وسترى. وشعرها يتكلم، يخبرك في دلال وهي تهفهف به أو تزيحه جانبا بحركة ذات مغزى، أنك أنت المقصود، ولاأحد سواك. وقدماها تتحدثان حديثا آخر لايخلو من شجن. تخبرك أنها كانت في الطريق إليك، ولولا مايحيط بك من زحمة غير لائقة بفتاة مثلها لأقبلت عليك، وأنها على إستعداد للذهاب حيث تحلو النجوى. وساقاها تكشف عنهما بحرص وحذر، ودائما توهمك أن هذا يتم دون قصدها، تارة متعللة بالهواء الذي طير الفستان، وتارة تقترب من الطوار المقابل مزيحة الفستان إلى أعلى وهي تضع قدميها عليه بخفة وبراعة، وأحيانا أخرى تأتي مسرعة جدا وتلف عند المنعطف، فيلف

فستانها بشكل دائرى ليكشف عن كنوز مافوق الركبة. وكأنها تريد أن تقول لك، لن تخسر شيئا بمعرفتها، بل أن معرفتها هى الكسب كله. أما ردفاها ونهداها، فحدث عنهما كيفما شئت، فهما فى إيقاعهما، يحدثانك بألغاز يصعب تفسيرها، وأقل أثر لها، أنك تكاد تقع من طولك، ولو كنت أعظم عظيم، وتكاد تحبو خلفها مهما كان تسلحك من الكبر والكبرياء.

لكن كل حديث لهذه الأعضاء لايغنى دون الختم. ودون التوقيع بالإعتماد، والختم للأسف هو الفم، ولكى ينطق فمها، ينبغى أن تخوض غمار تجارب طويلة، مابين إقبال وصد، وهكذا عدة مرات. حتى إذا مارست الفتاة معك سياسة حافة الطحو بنجاح، وأثبت أنك محب غيور، وأنك راغب فيها حقا، بدأت تستجيب لما سمعت من عبارات الإعجاب، ومن لهفة على اللقاء. وبكلامها، تبدأ أنت فى الصمت. ويأتى دور أعصابك فى الكلام، على الطبيعة هذه المرة. وماأعظمه وألذه من دور.

ولاتظن أن كل الفتيات والنساء يتبعن هذه السياسة بحذافيرها. فهى تتفاوت فى دقة التنفيذ بين فئة وأخرى. فالزوجة التى ترغب فى الهوى، تبدأ بعد النظرات الإستطلاعية، تتكلم بالتورية، وهى لاتريد منك أكثر من أن تكون كتوما للسر، مالأن تتأكد من ذلك حتى تصل معك إلى ماتريد. أما الخادمات وهن كثيرات جدا هنا، يذهبن إلى سوق الخضر من أمامى يوميا عدة مرات، يمارسن سياسة حافة الطحو مع أكثر من شخص فى وقت واحد، ويستجبن بسرعة. أما فتيات المدارس، وبنات العائلات، فهن يمارسن سياسة حافة الطحو، بحذق وفن ومهارة تملك عليك لبك إعجابا ودهشة. ولها عندهن تقاليد وعادات غاية فى الصعوبة. فالفتاة منهن تلقى شباكها عليك، دون أن تسمح لك بمجرد إلتقاء عينيك

بعينيها. وإذا فعلت فهى تدخل فى روعك أن هذا حدث عفوا، وأنه لاداعى لأن تتطلع إليها ثانية. ورغم أنك تحس أنها تحوم حولك، فأنت لاتملك دليلا ماديا قويا ومقنعا، أنها قد وقع إختيارها عليك. فهى تمر من أمامك وتتجاهلك، وفى الوقت نفسه تحرص على أن تريك مايجد فى أناقتها، بلوفر جديد، تسريحة جميلة. كل هذا دون أن تلتفت إليك. وهى تخطر أمامك لتسمع عبارات الإطراء والمديح، دون أن تظهر أنها مسرورة. فإذا إمتنعت عن عبارات الغزل، أحسست ـ ولست أدرى كيف ـ أنها غير مستريحة. وذلك دون أن تفعل شيئا ظاهرا تستطيع أن تستنتج منه ماطرأ عليها من تغيير. وكأنها فى كلا الحالين تشع إشعاعات خاصة، غير مرئية، تنفذ إلى مخ الإنسان دون أن يشعر، حاملة إليه الرضا أو السخط حسب حالها وقت إرسال الإشعاع. وإذا أمعنت الفكر وأجهدت مخك فى الإستقصاء لتعرف حالها، عثرت على أشياء أو أفعال قد تبدو تافهة، ولكن أهميتها كبيرة، وياويل من يخطئها، ويالعذابه. قد تراها مضطربة فى خطوها، وتفسير ذلك أنها راضية عنك وهاهى تجذب نظرك. وقد تكون مجرد محاولة للعبس كانت سترتسم على وجهها وأنت تنظر إليها، ثم عدلت عن العبس، وكأنها تتساءل، ولماذا أعبس لتصرفات هذا الشخص، وهل بينى وبينه شىء، وحتى إذا كان، فهل يستحق. ياأخى بعدك!.

ولقد أشعرتنى بهذه السياسة وأصلتنى نارها الآنسة سهير. أخبرنى جسدها أن أى متعة حصلت عليها من أى إنسانة أخرى، سواء كانت وضيعة أم عظيمة، هى محض سراب، وأن أى شىء جنيته من أى فتاة هو وهم، وفى أحسن الحالات هو إبتذال لاقيمة له. ورغم أنى تعلمت منها ذلك، إلا أنها فتحت عينى لكافة الفتيات الأخريات. فذات يوم

مرت من أمامى سهير، وخيل إلى أنها تحاول أن تبتسم، فحولت نظرى إليها، فلم أر شيئا، ولكن كانت إنطباعة منها قد إنغرست فى نفسى. محاولتها الإبتسام! نعم كانت تحاول. لماذا أخفت ذلك عنى، لعله الخجل، أو لعلى واهم. وقفزت الإنطباعة مرة أخرى، محاولة الإبتسام التى يقضى عليها التردد. وخيل إلى أنى رأيتها أكثر من مرة فى وجوه فتيات أخريات. وبدأت أتحقق. وكم كانت فرحتى عندما وجدتها تتحول عند بعضهن إلى ضحك وكلام.

وبدأت أنتبه لغفلتى. وأتحسر على ماضاع من أيام كنت فيها غير واع لما يدور حولى. لاشك أنى ضيعت فرصا كثيرة، وأهملت متعا كان يمكن أن أتذوقها لو كنت متفهما مكرهن ودهائهن. وقفز إلى ذهنى خاطر؟. سرعان ماتحققت من صحته. فتاة الكيس!، نعم فتاة الكيس. وتذكرت بسرعة غرامنا أنا وزملائى الطلبة بفتاة الكيس فى أجزاخانة ميدان المحطة. كنا نمر أمامها يوميا، نحاول مغازلتها بشتى الطرق. هذا مبديا إعجابه بعينيهاالخضراوين، وهذا مطريا جمال صدرها النافر. وكل منا يظن أنها تنظر له دون سواه. وبعضنا كان يفضل فتاة الكيس فى محل بنزايون، معتبرا إياها أكثر رشاقة. وكنت كلما قابلت صديقا لى، وجاءت سيرة الفتيات، تطرق الحديث إلى فتيات الكيس. وكيف أن كثيرين منا يحاولون الوصال. وكان دائما يدور همس عن علاقات غريبة بينهن وبين شخصيات مجهولة، وإن كنت أحسب أن كثيرا منها من نسج الخيال. فتيات الكيس كن بإستمرار حديث شباب المدينة. ويعرفهن الجميع، ويتمناهن الكثيرون. ترى هل لأنهن يجلسن فى مكان عام، أو لأننا نمر من أمامهن بإستمرار. فينشأ عن كثرة الرؤيا، نوع من الإعجاب، يطمع فى النمو إلى حب أو رغبة. أم ترى كانت رغبتنا فيهن لأنهن موضع

إعجاب الجميع، وأن الفائز بإحداهن ولاشك يكون قد إنتصر على شباب المدينة. لاأدرى بالضبط. كل ماخطر على بالى الآن، أنى أجلس على كيس أنا الآخر. وربما كان شأنى بالنسبة للفتيات كشأن فتاة الكيس بالنسبة لنا نحن الشباب. أوليست هذه الإبتسامات من أجلى، وهذه «التماحيك» وهن يتلكأن فى شرب العصير، رغبة منهن فى الوقوف عندى.

تحققت من وجاهتى. ماكنت متأكدا منه أنى على الأقل مقبول. وكلمة حلوة، وحسن معاملة، بالإضافة لكثرة تردد الفتيات، لاشك يخلق نوعا من الألفة، يسمح بشىء من الود، يمهد لما هو أكثر من ذلك. وهل كانت فتيات الكيس اللائى نراهن ملكات جمال!!. إختلست نظرة إلى عصير الحسين. فاطمأنت نفسى. فجو المحل يوحى بجو أزهرى، علقت خيمة مخططة، تحجب الشمس، بخطوط زرقاء وحمراء، وعلى واجهة المحل لوحات من الجص منقوش عليها آيات قرآنية. وجلس الشيخ أحمد بلحيته المدببة الوقورة وجلبابه الناصع البياض على الكيس، ووقف أمامه إبنه «مبهدل» الشكل والثياب. أيقنت من إنعدام المنافسة بينى وبين إبن صاحب عصير الحسين. وإنفرادى فى مجال الغزل. ملأنى إحساس بالزهو لكونى موضع إعجاب الفتيات؟!. ولعنت أجداد فتاة حارتنا التى أهملتنى. ماقيمتها بالنسبة لجميلات شارع الخلا، اللاتى أصبحت فى حيرة من أمرهن. أيهن أعاكس، وأيهن أختصها بالإهتمام الأكبر. وكان أخشى ماأخشاه أن تضبطنى إحداهن أثناء معاكستى لأخرى.

وأصبحت أكره أول الشهر وأيام الخميس. حيث يعود المغتربون عن المدينة من الموظفين والمدرسات فى الريف إليها. وحيث يتردد كثير من الفلاحين. الأمر الذى يزيد الضغط على المحل، ويعطلنى عن متابعة

الفتيات.

وعدت ألعن فتاة جارتنا بتشف وغل. أوليست سهير من حلاوتها وملابسها تبدو من عائلة طيبة. أوليست كثيرات غيرها من الطالبات يحاولن معي. وأحسست بالثقة تعود إلي. وبدأت أهمل «لاإله إلا الله» ومن على شاكلتها من البائعات والخادمات. وأضن عليهن حتى بالنظرة. ولا ألجأ إليهن إلا في حالة إشتداد الرغبة التي لاأستطيع تحقيقها بسهولة مع أمثال سهير. ألم أحاول معها أكثر من شهرين، ولم أفز أخيرا إلا بمجرد النظرة، ونظرة مشكوك في أمرها، في ساعة غضب قد تأول تأويلا مختلفا. ولم أكن أدري ماهية مايشدني إليها بالتحديد. هل صعوبة الوصول إليها تدفعني لإثبات جدارتي في هذا المجال. هل ماأشعر به من فقد بنت الجيران، يدفعني إليها دفعا، لتعويض هذا النقص. خاصة وهي تكاد تساويها إن لم تفقها من الناحية الإجتماعية. أم لأنها جميلة. فهي على شيء من الفطرة، صبوحة، عذرية، قوامها معتدل رشيق، وصدرها ناهد صغير يغري بالعبث، ووجهها قمحي حلو التقاطيع، يتحرك رأسها برشاقة، مطوحة شعرها، كأنها عصفور إفريقي يتبختر. أم ترى هي الرغبة في التعالي على مغازلة بائعات الشارع وخادماته. وإثبات أني إبن ناس أنا الآخر. ربما كان أحد هذه الأسباب أو كلها، أو بعضها. المهم أني وجدت نفسي مشدودا إليها. محاولا معرفة ماوراءها. وهي تأبى إلا أن تصل بي إلى سياسة حافة الطحو، بكل حرفنة ودقة. وسقطت عند قدميها جميع قوانين التقل والرسم. وأصرت أن تتبع معي الوسائل الأصيلة،

فهي تأبى أن يتم الوصال سريعا، لابد أن يسير كل شيء ببطء شديد وحذر، وأن يكون كل تغيير منطقي ومقبول، وأن يتم تطور الحوادث بكل تؤده، تتيح الإنتقال التدريجي المقنع من فصل لآخر، حتى

يحدث الحب. وكأنها تريد أن تقنع نفسها بقبول الحب، ليس من أول نظرة، ولكن من آلاف النظرات، وعشرات الدعوات، والرسائل الملتهبة. أو ربما كانت تريد أن تقنعنى أنا بالحب.

والله مقتنع. والصبر حرق الدكان. رقى بقى.



(٩)

كانت الروائح تهب على فى مكمنى خلف البنك الصغير. ويبدو أن ريقى وقع فى حيرة. لأى رائحة يتحلب، للسردين الطازج، للذرة المشوية، لدخان «اللية» المتصاعد من أسياخ أبو النيل الكبابى ، للبن المحمص، لرائحة الكمثرى المنعشة. ولكن مهما كان مصدر الرائحة، فإنها تتلاشى أمام ماكنة شتا التى تدور لتقطع شرائح البسطرمة الرقيقة، باعثة رائحة نفاذة من ثومها وتوابلها الحريفة، تهيج معدتى، ويفط عرق الحمية والنشاط من جبهتى وكتفى . وأمام رائحة البسطرمة فأنا مسلوب من أى بادرة للمقاومة، ليس لحبى الشديد لها فقط، ولكن لأن أحشائى تتحرك فى العادة منبهة إياى أنى لم أتناول طعاما طيلة النهار، وقد قاربت القيلولة على الإنتهاء. عندئذ يحسم تفكيرى، ويصدر قرار سريع بالإطاحة بأى نقود فوق العشرة قروش. وهذا يطير من أجرى الذى لايتعدى إثنى عشر قرشا، قرشين ثمينين، لسندويتش بسطرمة. ولتزعق والدتى ماشاء لها الزعيق، ولتعمل مايبدو لها، فإنها لن تقبض من أجرتى اليوم غير عشرة قروش. هذا إذا وصلتها سليمة!

فتحت الدرج لسحب قرشين من حسابى. وفجأة!! لمحت نقودا تطل من آخر الدرج، حيث توجد ماركات لم تستعمل منذ الأمس وقد علاها التراب. وجدت قرش صاغ وقرش تعريفة. وحسبت أول الأمر أنهما تدحرجا سهوا أثناء إلقائهما، ولكن وجود تراب عليهما أثار الشك فى نفسى. وكان

الحل الوحيد للتأكد من هذه المسألة، هو فتح صندوق الماركات وعدها. وهذا غير ممكن الآن، فالمفتاح مع المعلم. ملت للإعتقاد أنهما لابد قد تدحرجا أثناء إلقائهما، وهنالك تلوثا بالتراب، وإن كنت لم أطمئن لذلك تماما. وخطر لى أن أنقب فى خانات الماركات، فلم أجد شيئا. رفعت خانات النقود، وهى من الصاج، وكم كانت دهشتى حين وجدت خمسة قروش فضية على أرضية الدرج. أمسكتها فى حيرة، تلفت حولى فلم أجد من يعيرنى إنتباها. وإزاء ترددى فى أخذها، أو إلقاء ماركات بقيمتها. تجمعت أمامى بسرعة ومضات خاطفة لتؤكد لى حقيقة رهيبة. حقيقة طالما سعيت لمعرفتها. قطعة الخمسة قروش، علق بها صدأ من الصاج، فلابد أن تكون قد سقطت من مدة تسمح بتكون الصدأ. ولو كان المعلم يعد الماركات، لاكتشف هذا النقص. ولوصح أنه أخطأ فى عد القرش والنصف، فمن غير المعقول أن يخطىء فى عد خمسة قروش. ولكن ماقيمة خمسة قروش أو ستة قروش ونصف، وسط ألفى ماركة بقرش وبنصف قرش. أوليس من الجائز أن يخطىء. ربما فى هذا اليوم بالذات لم يعد الماركات. ومن قال أن الستة قروش ونصف وقعت أسفل الدرج فى يوم واحد؟. ولكن لا. تذكرت يوما نسيت إمرأة متعجلة تسعة قروش باقى حسابها، وسها على أن أخبر المعلم بالزيادة فى النقود. وأيضا هذا لاينفى أنه لم يعد الماركات. ربما عدها ووجد النقود الزائدة، فاعتبرها حلالا له، وأبى أن يخبرنى. وتذكرت يوما أخطأت فيه فى عد الماركات. ففى أحد المرات أخرجت ماركتين زيادة، ولم أنتبه إلا بعد أن أسقطتهما فى الصندوق، ووقتها خجلت أن أخبر العامل لخصمها من ماركات أخرى، فقد كنت جديدا بالمحل، وخشيت تريقتهم على. وكان أن ذهبت فى صباح اليوم التالى وقلبى يرتجف من الإضطراب، فقد

ظننت المعلم إكتشف الخطأ، وإتهمنى طبعا بالسرقة، وأنه على وشك طردى. وأيقنت أن ماهية اليوم السابق قد طارت. وكم كان عجبى عندما قابلنى المعلم ببشاشة!، كأن لم يحدث شىء؟. الأمر الذى أنسانى هذا الموضوع ولم أفكر فيه.

تجمعت هذه الحقائق كلها أمامى. تخبرنى أن المعلم لايعد الماركات. وأنها تسير بالبركة. ولم لا ؟!. ألم أوصله بنفسى بالأمس إلى منزله بعد أن أمضى سهرته المعتادة فى «كركرة» الجوزة. فمتى إذن عد هذه الماركات. هل عدها باللاسلكى، أم بطريقة سحرية خاصة به. لكنى رغم ذلك لم أطمئن كى أمد يدى لسحب ماأشاء من النقود. فالمعلم ماكر. ومن يدرينى لعله يعد الماركات مرة فى الأسبوع يطمئن فيها إلى أمانتى. ياسيدى ولا يهمك. إذا فاجأك بوجود خطأ فى الحساب إلتمس أى عذر، غلطت فى عد نقود الزبائن، أحيانا تكون الماركات ملتصقة ببعضها. ولماذا التعب وإختلاق الأعذار، عليك أن تنكر. وليفسرها هو التفسير الذى يراه.

وهكذا أسقطت قلاع الوهم التى أقمتها، لمكر المعلم ودهائه. وقررت الإستيلاء على ماوجدته من نقود. على أن أرسم خطة فى الأيام المقبلة لأخذ حاجتى من الدرج!. وبقدرة قادر وجدت المعلم أمامى، بقامته الطويلة الفيلية، وسحنته الصفراء الباسمة. خيل إلى أنه مطلع على خواطرى. وأن إبتسامته هذه سخرية منى. فى الحال ألقيت النقود فى الدرج، وأخرجت بقيمتها ماركات، وبسرعة ألقيتها فى الصندوق على بنك المصير.

(١٠)

إشتد وجع رأسي مع سريان الليل. وعاودني وجع الأضراس أشد ضراوة مما كان عليه؟!. بعد منتصف الليل أغلقنا المحل. وقمت أمشي. صعدت شارع الخلا بمحلاته المغلقة الضيقة الصغيرة المتعرجة، كأنما بناها الناس وهم في عجلة من أمرهم. والعجيب في أمر هذه المحلات، أنك كلما سرت أمامها، إكتشفت بينها محلا جديداً لاتذكر أن عينك وقعت عليه من قبل. وهاهي ترفل في صمت موحش لاينبيء أنه كانت هنا ضوضاء خمدت منذ قليل. ماذا يفعل هؤلاء الناس؟!. نائمون، مضاجعون لزوجاتهم، صائدون لنساء، ومدبرون لمكائد؟!. ولاح لعيني نور مصباح وردي خافت، يشع من شباك بعيد. فاستشعر جسدي دفء النساء اللذيذ. ملكوت يديره صاحبه. وأنا وحدي سائر أبحث عن حل لمشكلة بسيطة عويصة، هي وجع الأضراس. خلت أن المحلات قد إزداد إعوجاجها وإلتصاقها ببعضها بعضاً من شدة البرد. وأنها من شدة الزنقة بدأت تنبعج وتتراقص وتوشك أن تلقي ببضائعها في وجهي. قطعت شارع الخلا، ولم أدر إلا وقد قررت أخذ قرشين من الدرج زيادة فوق مرتبي على سبيل التجربة. وكنت قد طلبت من المعلم مساواتي بعامل العصارة الذي يتقاضى أربعة عشر قرشا، فرفض ناهياً إياي عن التحدث في مثل هذه الأمور.

وماذا يعمل لي قرشان. إزدحمت على المطالب فجأة. أمي ألحت على مرارا لأشتري لها جلباباً جديداً، تستر به جسدها، وقد حل الشتاء

أو أوشك. إخوتى يلمحن عن أكلة حلوة تفتح النفس. ولكن ترى هل سأخبرهم بما إعتزمت عليه. إن هذا عين الجنون. ستكون الزيادة لى وحدى، لايعلم بها أحد!! لقد إشتقت إلى البنت «لاإله إلا الله». إشتقت للعبث بنهديها الضامرين، لطالما حيرنى نهداها؟!. فهى ترفل أمامى دائما فى جلباب شبه رجالى، واسعا فضفاضا. أحيانا أخال ثدييها بارزين، وأحيانا لايبين منهما شىء. ولن يتأتى لى إكتشاف الحقيقة إلا إذا أخذتها إلى السينما مرة!. وماأسهل ذلك، بل قل ماأشد لهفتها هى لذلك. هى التى لم تذهب إلى السينما طول عمرها. وهناك ماأسهل التسلل إلى نهديها من فتحة جلبابها الواسعة، ولاأظنها تعارض؟!. وعلى أى حال فجو السينما كفيل بإذابة ماقد يعترضنا من عقبات!!. وإذا ماخاب مسعاى ووجدت نهديها ضامرين جدا؟، فلا أقل من التمتع بفخذيها!. وماأظنهما إلا ناعمين كخدها الأسيل. ومن يدرى ربما فزنا بما هو أكثر!!. لويت رقبتى فجأة من إشتداد وجع ضروسى. ضغطت فكى بشدة محاولا تفادى الألم فإذا به يوجعنى أكثر، آه، أما من سبيل لوقف هذا الألم؟. إن إدخارى قرشين أسبوعا سيجعلنى أستطيع إرتياد السينما بصحبة «لاإله إلا الله» وفى درجة معقولة ، فى الصالة، ويتحقق حلم طالما داعبنى. أما حشو الأضراس فيحتاج إلى مبلغ كبير. وبرقت لى فكرة، أن أقترض مبلغا من المال أعالج به ضروسى فى الحال. ثم أسدد مما أستطيع جمعه من الزيادة.

رفعت المبلغ الذى سوف آخذه من الدرج، ثم عدت فأنقصته لإعتبارات فنية. وبينما أنا متردد بين الزيادة والنقصان، طالعنى شارع الشيخة عائشة، بإتساعه وصدره الرحب. وهبت على نسمات قادمة من النيل القريب، طردت عنى شبح النوم، ودغدغت حواسى التى بليت من

جلستي منتصب الظهر كتمثال. كان النور الفضى المتسلل من القمر يغمر الشارع، خافتا هامسا، كأنما ليوحى للسائر أنه فى حضرة الشيخة عائشة، وماتستبعه حضرتها من خشوع وصفاء روح. وران على المكان جلال وكمال. ومن بين الأبنية برزت المآذن متطاولة إلى السماء فى حياء وخفر، كأنما تتلمس طريقها فى خفة إلى عشاق هائمين فى زرقة السماء النورانية الرحبة.

عرجت على الحوّار ثم عبرت ميدان الطميهى وتقدمت إلى شارع العباسى. كان شارع العباسى بجبروته نائما. ولكن أبدا لاتنل منه العتمة، فثمة نور يشع هنا وهناك. مقاهٍ فى دور التشطيب، وعمالها يعدون بعض الدكك لنومهم. وثمة عامل يزاحم آخر للمبيت فى جوار فرن، والاستمتاع بالدفء المشع فى داخله. وأبصرت من بعيد عمال الأفران، ومازال النوم يكحل أجفانهم والعماص يطبقها، يرتدون جلاليب تحمل آثار عجين ورَدة، وأمسكوا فى أيديهم الحوايا القماشية وطاولات الخبز، وأنفار يصلحون من شأن دراجاتهم. وكان استعدادهم لعجين الصباح يوذن بقرب الفجر. مررت أمام شادر للفاكهة، بجوار أرض فضاء مخصصة للبيع والمزايدة، وقد إنتصب فيها ميزان قبانى حزين وسط الظلمة دون عمل.

ما أن قاربت تقاطع العباسى والخلا حتى كنت قد زدت مرتبى إلى عشرين قرشا. أسوة بعامل البنك فهمى. فهو ليس أحسن منى. ويكفى أنى تعلمت فى مدارس لم تطأها قدماه. لايهمنى فى شيء كونه متزوجا وله ولدان. وكثيرا ما عايرنى العمال بأنى جالس، لا أفعل شيئا أستحق عليه مرتبى، وهم الذين يتعبون. ولكن ماكان الواحد منهم يجلس مكانى ساعة أو بعض ساعة لغيابى فى مشوار أو غيره، حتى يضج من كسر ظهره. وأظن أن العمل حتى ولو كان على العصارة وماتبعثه من ضجيج،

ومايلازمها من رطوبة، أهون كثيرا من الجلوس بلا حركة. اللهم إلا حركة يدى وهى تناول الماركات. نجحت تجربة القرشين، كما نجحت تجربة زيادة مرتبى إلى عشرين قرشا، وعزمت على أن أسير على سنة معلمى. فمعلمى لايعرف التخطيط، فإذا أحس أن المحل فى حاجة إلى شيء أرسل فى شرائه، حتى لو أخذ الإيراد كله!. فجأة يقوم بدهان البنك الأبيض دون داع ملح. يستبدل بمصابيح النيون أخرى زئبقية ظهرت فى السوق حديثا. يستبدل بالورد الطبيعى وردا صناعيا ، ثم بعد عدة أيام يسأم الورد الصناعى ويوصى بشراء ورد طبيعى كل صباح. يتم هذا دون سابق تدبير — أو هكذا يخيل الى — ودون النظر إلى إيراد ومصروفات اليوم الذى يتم فيه التغيير. قررت ألا آخذ شيئا ثابتا فى الأيام العادية. منحت نفسى علاوة قدرها خمسة قروش لتغطية ماأسميته بالمطالب الملحة. ويوم الجمعة ثمانية قروش بدل أجازة، ولأن هذا اليوم تكون فرصة الذهاب فيه إلى السينما مع «لاإله إلا الله» كبيرة. كانت العلاوة أحيانا تتضاعف وقلبى يدق. أما فى الأيام المرتفعة الإيراد، فكنت أمنح نفسى علاوة «بدل بهدلة» لاتقل عن عشرة قروش قابلة للزيادة حسب التساهيل. ففى هذه الأيام يتضخم الإيراد وتنفد الماركات من الدرج. فأسحب بخمسة أو ستة جنيهات ماركات من الصندوق، الأمر الذى يصبح متعذرا على معلم لايعد الماركات إلا بالصدفة أن يعدها فى ذلك اليوم. وعلمتنى الخبرة بعد ذلك زيادة الحيطة. فكنت لاآمن مكر وغدر المعلم. فلا آخذ رقما صحيحا، لاعشرة أو خمسة عشر أو عشرون، ولكن أحد عشر قرشا ونصف أو ثلاثة وعشرون قرشا ونصف. حتى إذا ماإكتشف الأمر، أصبح نقص النقود طبيعيا، وبدا نتيجة لأخطاء فى العمل. وكنت كل صباح أخال نظرات العمال إلى مليئة بالإحتقار، وأحيانا أظن أن أمرى قد

إنكشف. وكانت طريقة عد حندق للنقود إذا ماأرسلته في شراء شيء تربكني، وجعلني أعتقد أكثر من مرة أنه يسخر مني. فهو لايعد النقود مثل سائر البشر، واحد وواحد يساوي إثنين. ولكنه يعد بطريقة عجيبة، بريزتان واثنان «نص فرنك» وصاغ أحمر ، أو يقول في مرة أخرى : ثلاثة شلنات ورق وبريزة فضة وتسعة صاغ قروش، إخصم منهم ثلاث تعريفات، يبقى كم ». ولولا تأكدي من غبائه لظننته يولف فوازير.

ورغم إقتناعي بضرورة أخذ النقود لسد مطالبي، إلا أن ثمة شك وخوف كانا يعصفان بي من حين لآخر، ويذهبان بصفاء نفسي، ويجعلان من البهجة التي تعتريني بعد أخذ النقود شيئا ثقيلا معتما على القلب. ولم أكن أدري على وجه الدقة مصدر هذا الإعتام. هل هو الإعتقاد الراسخ في ذهني من والدي وأهلي أن هذا حرام، أم هو تعليمهم الديني لي في المدرسة، أم هي الأخلاق التي شببت عليها والتي تنفي وتنفر من مثل هذا العمل. ولكن إزاء حاجتي الملحة، كنت أمنع نفسي من الإسترسال في التفكير على هذا النحو، وأحيانا أقنع نفسي بإرجاء التفكير بعض الوقت. وكنت إذا ماالشتد الوخز علي، أوهم نفسي أن ذلك وضع موقت، لن يلبث أن يزول عندما أجد عملا مناسبا حين أحصل على التوجيهية. الأمل الذي كان يراودني دائما. وكثيرا ماانتابني الضيق لإعتقادي أن بعض العمال أشرف مني. ولقد نبهني المعلم مرارا إلى ضرورة مراقبتهم، فلا يوجد أشطر من العمال في النهب، وهم يبيعون العصير دون ماركات، إذا لم ينتبه إليهم أحد، ولقد مر وقت طويل قبل أن ألحظ ذلك. وعندما إكتشفت سرقاتهم أول مرة، ثرت ثورة عارمة على العامل الذي وقع في يدي، وهددته بأن أفشي سره للمعلم. ولكن إحساسي بأنه لابد في حاجة لما أخذه، وبأني أفعل مثله، منعني من أن أبوح للمعلم.

وفى المرات التالية، تحيرت، هل أمنع ذلك أم أتركه. وجاء الأمر طبيعيا، تصنعت أحيانا عدم الإنتباه، وفى الحالات المكشوفة جدا، كنت أتدخل. واكتشفت أن تدخلى يفيدنى جدا، فهو يعطينى نوعا من السطوة على العمال، ويحسون أمامى بذنبهم، ويخشون دائما أن أفشى سرهم للمعلم. وبدأ حندق يلين ويطيع أوامرى، ويخفض صوت الراديو دون أن أطلب منه ذلك. وإن كنت لست متأكدا، هل هو يطيعنى خوفا من إفشاء سره للمعلم، أم أن طول العشرة أوجد نوعا من الألفة يسمح بسماع الكلام. غير أنى كنت ألمح فى عينيه نظرة خبيثة غادرة، كمن يقول: أمن المعقول أن يكون أمامك درج النقود ولاتمد يدك. وأنبأتنى نظراته ،أو هكذا خيل إلى، أنه يتحين فرصة ليعلمنى أنه كشفنى، وحتى لايكون لأحد منا سطوة على الآخر.

كنت مازلت خائفا من مفاجأة المعلم بعد الماركات يوما ما، وكان يخيل إلى أن حندق سيوحى إليه بذلك، أو أنه سيتطوع بعدها وإخباره. ولكن رؤيته آخر الليل وهو يطوح من التعب، كانت تطمئننى قليلا. وكان الشبح الجاثم على فكرى دوما، أن يقرر المعلم عدها ظهرا، وماأسهل ذلك. يجرد الدرج ويوازن بين الإثنين. لاسيما وأنا لاميعاد لى لأخذ علاوتى، حسبما تسمح الظروف. وكدت من الإضطراب أن أمتنع عن أخذ شىء من الدرج.

وظللت أبحث عن طريقة آمنة. وقادتنى الصدفة لذلك ذات يوم. بل قادنى حندق بنفسه إليها!، ولعله لو علم لانفجر ومات!!. فالمفروض أن أذهب إلى المحل صباحا فى السادسة، كى أشرف على فتح المحل. ولكنى لاأصل قبل الساعة السابعة والنصف أو الثامنة، وأنا مطمئن إلى أن المعلم لن يحضر قبل الحادية عشرة، هذا إذا بكر يوما، أما موعده العادى

فهو الثانية بعد الظهر. وكان العمال أثناء غيبتى يتسلمون النقود من الزبائن، دون وضع ماركات فى الصندوق الذى يفرغه المعلم فى الدرج ليلا. وعند حضورى أتسلم النقود وأتولى وضع مايساويها من الماركات، دون رقابة جدية من أحد. وإن كانت أعينهم تكاد تخترقنى وهم يحاولون إشعارى بأنهم لايلاحظوننى. وحدث مرة عندما هممت بإلقاء الماركات، وكان حندق مشغولا بإحضار لوح من الثلج، أن وجدته فجأة أمامى يتابع عدى فى وقاحة. وينبهنى دون أن يدرى لوسيلة أغفلتها زمناً. فأنا أستطيع إستلام خمسة عشر قرشاً وإلقاء عشر ماركات فقط، بسرعة دون أن يلحظ أحد، والصندوق مغلق بالقفل والمفتاح مع المعلم. ولن تهمنى نظرات حندق الملتهبة، فهو لن يستطيع فتح الصندوق فى الحال إذا لحظ شيئا وإدانتى، وحتى يحضر المعلم، فما أسهل إنزلاق خمسة قروش إلى جيبى، أوأخذها جهاراً والإدعاء لوسئلت بأنى وضعتها من جيبى لعدم وجود فكة بالدرج.

وكانت هذه الطريقة الأخيرة مأمونة العواقب، وآمنة من غدر حندق أو المعلم. وواظبت على إستعمالها. ومع الوقت أضفت إليها طريقتى السابقة. فإذا ماشككت فى شئ، إقتصرت عليها وحدها، وإذا ماتبينت أن الأمور تسير على مايرام إستعملت كلا الطريقتين.

وكنت حين أروح تتقاذف النقود أمام عينى وتتماثل لى رخامة البنك وأنا أختبر النقود الفضية لإكتشاف الزائف منها، ورنينها لايغادر أذنى، يصرف إنتباهى عما فى طريقى. بل أحياناً كنت أهلوس بشىء من حوارى مع الزبائن فى منامى، فعلى الكيس وقتما نطلب الفكة لانجدها، وأحياناً يمتلئ الدرج بالتعريفات والصاغات ونعجز عن تصريفها. وقرف الزبائن يجنن:

- قرش ماسح هات غيره.

أما إذا كان سيدفع هو القرش الماسح، ورفضته، سارع إلى القول:
– ياأفندى عيب لما تقول ماسحا.
– طيب «الشلن» الورق مقطع.
– ياأفندى مادام الرقم باثنا خلاص.
– عارف أن الرقم موجود، ومع ذلك الزبائن ترفضه، ترضى أنت تأخذ واحدا «مهريدا».
– لما أنت ترفضه نعطه من..؟!.

وأقنعه عملياً بوجهة نظرى، فأناوله لأحد الزبائن أمامه فيرفضه، يسترده صاحبه مدارياً خجله وينسحب مسرعاً وقد إمتنع عن الشراء. وكثيراً ماتمنيت أن يختفى صنف النقود من على وجه الأرض كى أستريح. ولكن شيطاني اللعين كان يرد ساخراً: وعندئذ لن يكونوا فى حاجة لوظيفة كيس!!. وإذا ماحدث وإستلمت الأوراق المالية البالية والنقود المعدنية الماسحة، ثار المعلم وهددنى بإحتسابها من أجرى، أما إذا كان موجوداً وأنا أرفضها لزبون، سارع يقول لى ويبتسم للزبون:
– والفلوس «الوحشة» خلها لى.

(١١)

فهمى عامل البنك نازل دعكا فى الأرض أمام المحل. إنتقل بعد قليل إلى كحت بلاط الطوار تحت البنك بالطوب الأحمر، رش مسحوق (فيم) وهات يادعكا. أزاح ماتراكم أمامه من وسخ ومن بقايا حمرة الطوب بالمياه. جرى بعيداً وتأمل منظر المحل، لم يعجبه. فبدأ من جديد، ولم يفته البنك، فأخذ يدعكه بفرشاة بلاط ومسحوق (ڤيم). ثم دورا ثالثا ورابعا باللوفة والصابون، حتى تجمعت بركة مياه أمام البنك، نزحها بالمقشة. لم يعجبه لون الأرض والوسخ المتراكم عليها، إندار عليه يزيله بالمقشة بعد أن لينه بالماء. أخذته الحمية، وهات يارميا جرادل ماء حتى نظف الميدان أمامنا كله. وكان التعب قد نال منه فالتفت إلى قائلا:

- أظن كفاية.

فعابثته مستهزئا:

- إنت فاكر إنك عملت حاجة، والله لو عملت البدع، الزبائن فى يومنا الأسود غضبانة.

رد بضيق:

- يوم نحس. أنا عامل على المعلم، فاكر إن حضور الزبائن فى أيدينا. السوق نائم، نرقص لهم يعنى.

تذكرت المعلم عندما يحضر فى هذه الأوقات، ويجد الدرج خاويا. يظل

يزعق، ويسب ويشتم دون أن يقصد نفرا بعينه:

– سأريكم ماذا تعمل وقفتى على البنك.

– واقفون نائمون إصح يانائم. هو هو هوه.

كانت غضبات المعلم هذه تزعجنى. وأظن أنى المقصود بها لامحالة، وأنه بعد قليل سيبدأ فى حسابى لعجز فى الإيراد. وأروح أعد نفسى لما يجب أن أقوله. ويرتج القول على، وأنتظر، وأنتظر، حتى تتحطم أعصابى. وأقرر أكثر من مرة أن أمتنع عن هذه العملية. فلو كانت السرقة ليوم أو يومين – حتى ولو كان المبلغ فادحاً – لتحملتها وإنتهى الأمر. أما أن يكون الأخذ بالقطارة، وباليوم، إحتياطاً للطوارئ، فهذا هو المتعب حقاً. وإن كنت مع تكرار نوبات المعلم وهياجه، لم أعد أتأثر بسهولة، ولكن الشك كان يلم بنفسى بين آونة وأخرى.

أصبح معلوما لدينا أن المعلم يختار يوما أو يومين فى الشهر، لعمل سب عام لعمال المحل، وأسمينا ذلك بيوم الزعل الدورى. وكنا فى نهاية هذا اليوم نجتمع بالمخزن، فى مؤتمر غير مقصود. ورغم الألم الذى يطل من العيون للإهانات التى لحقتنا، كنا نأخذ فى الضحك ونتندر من نفس مادة الزعل. حندق يحتج:

– المعلم هددنى بإنقاص مصروفى. ثم يضحك فى وقاحة وهو يكمل:

– بسرعة نسى أنه كان شغالا بريال فى اليوم.

– الله!، هو أنت تعرفه من زمان؟.

– أعرفه وأعرف إخوته، أنا طول عمرى فى «الحتة». قبل الحاج الكبير مايموت، الحاج درويش خيبه، الله يرحمه. كان عندهم شادر فاكهة وسى بدير كان باليومية. ولما أبوهم مات إختلفوا، إخوته إشتروا عربات نقل وخسروا فيها، والمعلم بدير هف قرشين عمل العصارة. وكأنما إرتاحت

نفوسنا عندما علمنا أن المعلم كان يعمل باليومية مثلنا. قال فهمى:

- إذن لماذا النفخة الكاذبة..؟!.

صاح حندق كأنه لم يسمعه:

- وأنا ماأقدر أتحمل أكثر من هذا. أنا يلعن أبى. ماذا عمل له حتى يعنه. ولأول مرة ألمس رنة أسى فى صوت حندق وهو يقول:

- حرام عليه الرجل نائم مِكَسّرَ.

قلت له:

- لاتأخذ فى بالك.

- ستة شهور وهو نائم. من يوم الفرس ماهرست رجله. أنا ياعم أرجع الورشة. وأبعد عن سى بدير.

وسألته مندهشاً:

- عندكم ورشة ياحندق؟.

فقال فى تيه وهو يدير عينيه فى وجوه العمال:

- سى فوزى نفسى يصدقنى. عندنا ورشة عربات كارو، فيها عدة بثلاث مئة جنيه. نحن أولاد ناس، قل له ياسى فهمى.

أما المعلم فلم يكن يعبأ بالورشة أو بغيرها، ويصيح بعبارة يفضلها عند تأنيب حندق:

- إعتدل أحسن أقول لأمك.

كان المعلم يحضر وعيناه مقفلتان، وجبينه مقطب. يسرع صبى المقهى الذى يعرف مزاجه، بالطلبات متتالية، بمجرد أن يلمحه، شاى، قهوة على «الريحة»، ينسون، كرسى دخان. وأثناء جذب النفس الثالث، يبدأ المعلم فى فتح عينيه. فيطلب واحد حلبة حصى.

والعمال وحظهم، إما أن يقرر الذهاب لعمل الإصطباحة ـ والإصطباحة تعنى عنده ذهابه لشلة الحشيش ـ وإما أن يعمل إصطباحة للعمال ويجعل نهارهم أسود . وكنت أحمد الله أنه لايعتبرنى مندرجا فى سلكهم، وإن كان بعض الرذاذ الذى يصيبنى يحز فى نفسى، رغم أنه لم يكن يتعدى شخطة أو بعض التجهم فى وجهى. إلا أنى كنت أتذكر أبى عندما كان يحدث منه ذلك، كنت أظل فى خصام معه أسبوعا على الأقل رغم مصالحته لى وزيادته لمصروفى. أتذكر ذلك فتطفر عيناى بدمع عزيز يتأسى على ماكان. بخ فى أذنى صوت خليل:

ـ عربات القصب وصلت. تنزل؟.

ـ لم لا .

ـ أصله قصب مسوس.

ـ أظنك شفت القصب قبل مايتحمل على البحر الصغير.

ـ يعنى نرجعهم بعد ماوصلوا؟!.

ـ القصب كله بايظ؟.

ـ فيه وفيه.

ـ طيب واللبشة كم عود؟.

ـ فيه أربعة وفيه خمسة.

ـ الداهية من جميع النواحى. لماذا لم تجعلها ستة أو سبعة.

كنت أعلم الكثير عن خليل وجلساته معهم على البحر الصغير، كوب شاى على المزاج، وتعميرة، ويحملوه أنيل قصب.

أخذت أجرى حسبة. المائة لبشة بثلاثة جنيهات. عندما تتحول إلى عصير، يصير ثمنها عشرة جنيهات. هذا إذا كان القصب جيدا، أما القصب الذى أتى به خليل فجاف وليس به ماء.. ماالعمل؟. هل نضع وعاءً من الماء

بجوار العصارة، نغمس فيه القصب بعد عصره، وندخله العصارة ثانية ــ كما تفعل بعض المحلات ــ وبذلك نضاعف العصير. ولكن مافائدة ذلك في هذا اليوم المقفر من الزبائن. ثم أن المعلم بدير سيغضب إذا علم بالأمر. فهو يهتم بسمعة المحل وجودة عصيره الذى يفاخر ويباهى به. أدركت بعد طول تفكير أن حمولة القصب، بلوى سنقبلها على علاتها. وعندما يصل المعلم ويعلم بالنبأ، سيعم النهار شر مستطير.



(١٢)

كان ثمة تباين لاأدرى ماهو. أحسه وأشعر به دون أن أستطيع تحديده. ونفسى تحدثنى بسرعة البت. فالوقت ضيق وإذا لم أستغله سأفقد حتما فرصة العمر. ولكنى متردد. ويشلنى تناقض أشعر به. كنت أحس أن الأمر يختلف مابين عشى بالماركات لصالحى، وبين ماتلح عليه نفسى الآن. إنه حلمك يتحقق. ولو مكثت بعد ذلك سنوات طويلة لما إستطعت إدخار ثمنها. هذه لُقطة ولن تتحصل على مثلها. كن شجاعا وأقدم. كلها دقائق ويصل الرجل.

كانت الحجرة مسدلة الستائر، مغلقة الباب، ريثما يكلم الطبيب سيدة طلبته فى الخارج. ساعته على المكتب لامعة مغرية، يبدو أنها ذهبية، كبيرة نوعا. إقتربت منها وقلبى تزداد دقاته عنفا، لمحت بها خانة تدل على الأيام، هيا أقدم وزين معصمك. ستجذب أنظار الناس فى شارع الخلا كله، وأنت تسير ملوحا بهذا الأستيك البراق، وستدخل فى روع البنات أنك متمكن ماليا. وماذا لو دخل الرجل لحشو ضرسك، فوجدك ممسكا بها. تضعها مكانها مدعيا أنك كنت تتعرف على الوقت. وماذا لو لم يصدق الرجل، ستكون فضيحة بجلاجل. وماذا لو إكتشف ضياعها فور مغادرتى لعيادته، سيتحرى عن المحل، ويكون موقفى مخزيا أمام العمال، وعندئذ لاأستطيع الظهور فى شارع الخلا، ولاشك سأفقد عملى. لا، الله الغنى عن هذه الساعة. وكيف سيعلم أنه أنت بعد خروجك. إن

عشرات الزبائن يجلسون فى كرسيك هذا كل يوم، كيف سيعرف من الذى أخذها. ثم لماذا أتردد حيالها ولاأتردد حيال الماركات. كدت أستهين بالخطب وأوشكت على إرتكابها. ثم فجأة أحسست أن هناك فرقا كبيرا، عبثا حاولت تحديده، كنت أشعر برهبة ضخمة، مع أن الأمر لايتعدى أكثر من مد يدى على المكتب ووضعها فى جيبى. وإزاء هذا التردد المميزق، تمنيت أن تحضر الممرضة وتقف معى، أو أن ينفرج الباب قليلا فلا أتمكن من فعل شيء. وخيل إلى أن الدقائق قد إمتدت طولا وعرضا إلى أجواز لانهائية، أو أنى على وشك الإنهيار. وفجأة دخل الطبيب، فشعرت براحة طاغية، أسلمت له نفسى على أثرها، ينقب فى الضرس كما يريد. وكأنما أدهشه هدوئى، وربما ظن أنى أصطنعه، فراح يطمئننى أنى سأرتاح حالا. وكان فى كل مرة يخبرنى أنه لم تبق غير زيارة أو زيارتين وتنتهى متاعبى، ورغم ذلك تعددت الزيارات حتى بان أنها لن تنتهى، وإستمرت معها متاعبى. وهو لايكف عن طلب النقود، ولذلك شعرت بندم وحزن لأنى لم أقم بعملية تعويض كانت سانحة منذ دقائق.

وكثيرا ماغاظتنى ممرضته بشكاواها التى لاتنقطع من أنه غلبان.

— لماذا ياأختى يضحك علينابمس لايساوى شيئا ،ويقبض جنيهات، حارا ونارا فى جثته.

ـ ليت الأمر كما تقول.أصله خاطب واحدة مطهقاه.

وشرعت تقص على أمر خطبته لحكيمة ذات جسم لدن ومسحة من جمال جرىء، وهى تعتبر نفسها ملكة جمال بالنسبة له. وهو القصير الكريه، متفصد بالعرق، حتى كدت أتقيأ مرارا وهو يضع يده فى فمى. قالت الممرضة فى لهجة ملونة:

ـ البك واقع لشوشته، مايقدر يرد لها طلب، بالعة كل فلوسه.
ـ لهذه الدرجة .
ـ وأكثر.
ـ وهو مزنوق عليها.
ـ خيبة وقلة حيائب.
ولست أدرى لماذا شعرت بالإمتنان تجاه هذه الحكيمة.

(١٣)

بخفة القط نزع المعلم جلبابه البلدى الفضفاض. وألقاه أرضا فى عصبية. كاشفا عن سروال أبيض أشبه بسراويل المماليك، وصديرى مزركش تحته فانلة بنصف كم. وبرزت من صدره شعيرات نافرة، علا بعضها الشيب. وتعجبت لمروقه بجثته الضخمة من أمامى بسرعة البهلوان. وقبل أن يرتد إلى طرفى، دخل محل شتا. وعاد إلينا كالسهم المصوب، يحمل سكينا ضخمة رشقها على صندوق الماركات الأحمر، فبان نصلها حادا بتارا. أرعد المعلم بصوت واثق بنفسه جدا، ضيق عينيه ، إرتعش حاجباه، وإهتز شنبه المنفوش، ضرب بقبضته «قصعة» تصطف فيها شوبات زجاجية، فانقلبت على رخامة البنك، محدثة أصواتا ـ بانت وسط لمة تراقبه كأن على رؤوسهم الطير ـ كأجراس إنذار تنذر بشر عظيم.

خرج صوت المعلم حادا، قاطعا، غاضبا:

ـ أصل أنا مجرم. نفسى أبات فى السجن.

ونظر فى تحد إلى ضابط صغير، بدا أنه أخذ على غرة بهذا السكين المرشوق، يهدد عنقه النحيل بين لحظة وأخرى. كان من الجلى أن المسكين فى موقف لم يمر به قط. وأنه إذا كان قد تلقى قبل تخرجه مايعينه على مواجهة مثله، فقد تبخر الآن أمام حدة المفاجاة. المعلم فى صوت كفحيح الشيطان، معرضا بالضابط:

ـ إبن كلب. تلميذ أمه تصرف .. عليه. فرحان بالدبورتين. ثم فى حمية فجائية:

ـ والذى خلق الخلق أطيرهما لك.

وقف العساكر مشدوهين، يخشون القيام بأى حركة خوفا من تهور المعلم وحدوث المحظور. حاول أحدهم أن يطيب خاطره بكلمة. فصاح لاعنا الجميع:

ـ يانسوان ياأولاد الكلب. تدعون أنكم رجال و . . . تقطعوا أرزاق الخلق. يعنى أقفله. حتة عصارة ماأقدر أفتحها. وهنا شخر شخرة طويلة، أعقبها بقوله: أكون امرأة .ثم ضحك ضحكات هيستيرية وهو يلعب حاجبيه.

وقف الضابط ذليلا مصعوقا. وظهر من تعابير وجهه أنه مندهش جدا لما حدث. ولايدرى كيف حدث. كان فى وقفته هذه أشبه بطفل مدلل، منعته أمه من الإتيان بعمل ما أكثر من مرة ثم فاجأته وهو يرتكب نفس العمل فنهرته بقوة.

سادت فترة هدوء نسبية تخللتها همهمة بين المتحلقين ، وأخذ الناس فرصة لتغيير أماكنهم، فبحث كل منهم عن أنسب مكان لمشاهدة مايحدث. حاول أحد المعلمين بهدوء نزع السكين وتهدئة المعلم. فجعر فيه:

ـ روق ياولد.

إبتعد الرجل على الفور، وأى معلم آخر مهما كانت مكانته، يتضاءل فى هذه اللحظة الرهيبة أمام تحفز معلم آخر، ويفسح له المجال ليفعل مايريد، لأنه سيصبح فيما بعد حديث الشارع، بل ربما حديث المدينة كلها، وستحكم له أو عليه. لذلك فأى تدخل دون أن يسمح به المعلم

المتصدى يبطل فورا. ويكفى أن يقال فيما بعد أن هذا التدخل أو ذاك لم يمكنه من إظهار «جدعنته»، أو قلل من تحديه للحكومة، أو ثبط همته للنيل من هذا الضابط المرتعد الآن، والذى دوخ الشارع فيما قبل ووعد أكثر من معلم بضربه علقة ساخنة لاينساها أبدا. وزاد عزمهم عندما نقلت إلينا الشائعات أنهم ضربوه فى حى ميت حدر.

تحولت همسات المعلمين بائعو الفاكهة إلى الجهر:

— يعنى مافى فى شارع الخلا رجال.

— بكرة نقطع رجله.

وشجعهم الباعة السريحة، وهم شبان صغار، يبيعون البليلة والترمس ويقفون بصناديق السجائر، ويفرشون الطوار بالجرائد والمجلات:

— وجب يامْعلمين.

ثم ينطلقون للنداء على بضاعتهم وعيونهم تلمع مكرا. فهم يريدون وقف هذا الضابط عند حده فعلا، ولكن دون أن يصابوا بأى أذى، فهم يعترفون أنهم ليسوا أهلا له. وأن التصدى له واجب المعلمين. توقفت الحركة فى شارعى الخلا والعباسى، وانجذب إهتمام الناس كلية إلى مايجرى أمام عصير الشرفاء. وتكدست عربات الأجرة والعربات الخاصة فى شارع الخلا الضيق المتعرج، وزحمت الطريق عربات الكارو، تصهل خيولها كأنها تود أن تتخطى البشر. وأتوبيس شارع العباسى بحت زمارته ومامن سامع يفسح له الطريق.

ظهر فى وجوه الجميع إشفاق على موقف الضابط، غير أنه لم يعمر طويلا، فانطلقت همهماتهم من جديد تشجع المعلم. أما أكثر الناس إنكوا، من أفعال الضابط، فقد وقفوا على أهبة الإستعداد للعراك. الدرينى زوج نجية، يقبض بيديه على سنج الميزان، وقد إتسعت حدقتاه فى شماتة

يراقب تطور الموقف. عيسى بائع الجرائد، والذى كثيرا ماحُملت المنصة التى يعرض فوقها مجلاته على عربة نقل كبيرة، تكومت فوقها أكشاك سجائر وبنوك وترابيزات وكراسى، كل هذا بأمر الضابط. ولا أحد يتكلم. كل هذا لأنهم لا يحملون رخصا تبيح لهم الوقوف على أرض مجلس المدينة. والظاهر أن عيسى لم يجد مايتسلح به، فتشبث بابنته الصغيرة لحمايتها إذا هدر الزحام. أما عمال عصارة الحسين فقد تسلحوا بأدوات العصير من أسطال نحاسية وأكواب زجاجية. وصنع عمال محلنا كردونا حول المعلم يحيط به أينما تحرك، شاهرين أسلحتهم. حندق أمسك بحديدة مدببة تستعمل فى كسر الثلج، فهمى مستعد بجردل ماء ملىء بالمياه، عمال المخزن يلوحون بسكاكين تنظيف القصب الضخمة، والكل يحملقون فى المعلم، والكل يرنون إليه فى إعجاب.

تحولوا جميعا إلى فريق من الشياطين على إستعداد لتمزيق وهرس من يمنع أرزاقهم. ولكن، أبدا لايستطيع أحد أن يبدأ الهجوم، الكل خاضع لسلطان وأمر المعلم بدير. حتى نجية التى يصعب حكم لسانها فى الشارع، كانت محكومة، تقف صامتة، محتضنة عمود النور، كأنها تحتمى به، وعلى إستعداد لرقع الصوات لإشاعة الرعب والبلبلة عندما يحين الحين. والعمال فى إستعدادهم لخوض المعركة، لايدافعون عن رزقهم المهدد بغلق العصارة فحسب، ولكن يكفى أن أحدا يمس إحساس معلمهم، حتى يجدوا مبررا لإثبات رجولتهم. أما المعلم بدير، فإنه يخوض معركة هائلة، إنه يعتبر نفسه مسئولا عن شرف الشارع، ألم يكن يصيح فى تيه:

ـ والنبى ياسى فوزى أنا معلم الناس هنا كلها.

فأضحك له إعجابا زائفا. فيستطرد:

ـ أنا دائما أبدأ بالجديد. أعمل زينه يقلدونى. ثم يطلق عقيرته عاليا

ناحية عصير الحسين:

- تمام ولا لأ ياولد. رد يا..

ويخيل إلى أن المعلم يدافع أيضاً عن فتوته التى تتيح له التفوق فى مجالس الأنس والطرب، والأمرّ من هذا، الدفاع عن عماله، وهل يستطيع أحد أن يمس شعرة لعامل عند المعلم بدير؟!. أن يمسهم هو فهذا جائز، وكثيراً مايفعل ويقوم بضربهم إذا وجد منهم تهاوناً ورأى فى الضرب إصلاحا لإعوجاجهم، أما أن يمسهم غيره فهذا كثير. وكان هذا ماحدث اليوم!.

كنا فى يوم جمعة. ولانتوقع مرور عربة الضابط بموكبها الكئيب القاطع للأرزاق. كانوا يمرون يومياً حاملين أكشاك ومعدات الباعة الجائلين وبنوك الدكاكين وعربات الفاكهة. لم يكن الضابط يريد شيئا يقف على أرض الشارع غير الآدميين. كل شبر له ثمن عند مجلس المدينة. وهؤلاء الذين يجرون على رزقهم يوما بيوم ويقفون على أرضية وطوار شارعى العباسى والخلا، من أين لهم ثمن هذه الرخص، الأرض بالنسبة لهم أرض واسعة، شوارع ملك لله وحده، وهم أحرار يقفون أينما أرادوا. أما أصحاب المحلات فرغم قدرتهم على دفع ثمن أرضية بنوك دكاكينهم، إلا أن بعضهم إعتبر الثمن مرتفعاً. والبعض الآخر ليس عنده وقت - قد يستمر عدة أيام - ينفقه عند مكاتب مجلس المدينة. أما الباقون فقد إعتبروا ذلك إهانة، طول عمرهم واقفون وفاتحون محلات فى الشارع ولم يسمعوا عن شئ إسمه «إشغال طريق» ولن تستطيع قوة أن تزحزحهم عن موقفهم.

وكان أن حضر الضابط إلى محلنا فى عربة جيب صغيرة، ومعه مهندس من مجلس المدينة، تتبعه عربة نقل كبيرة بها قوة من عشرة عساكر وجاويش وصول.

جاءنى الضابط بصفاقة:

– البنك.

ثم أشار إلى البنك الأبيض وماعليه من براميل زجاجية، وكأن كلمته منزلة من السماء. أخذ بعض العساكر فورا فى رمى ماعلى البنك دون مراعاة لما قد يتلف أو ينكسر. لم تكن هناك فرصة للإحتجاج. فأسرع العمال فى إخفاء البراميل «والشوبات». أشار الضابط بعينيه لعساكره. حاولت وأنا أعلم عقم محاولتى أن أثنيهم عما إعتزموه:

– يابك صاحب المحل معه الرخصة. دقيقتان ويحضر.

– نأخذ البنك، ولما يحضر صاحب المحل، إذا كان معه رخصة يحضر يستلمه. وكأن كلامه هذا قضاء لايقبل الجدل. أشاح بوجهه إيذانا بعدم رغبته فى سماع كلمة أخرى. وسرعان مانزع العساكر لوح الرخام جانبا، وشرعوا يدحرجون البنك على الأرض!. البنك الذى يغسل كل ساعتين بالماء والصابون «والقيّم». البنك الناصع البياض وسط الشارع الموحل فى بعض جوانبه.

ولم يجد أى إحتجاج إزاء شتائم حضرة الضابط وتهديده بجرى مع البنك إلى القسم. ذابت نقمتى على المعلم، لما كان يلحقنى من مضايقات فى العمل كنت أعتبره مسئولا عنها. وغفرت له كل شىء، بل كدت فى غمرة الفزع الذى إنتابنى أن أصيح: «آمنت بك يامعلم». كان المعلم يفخر أنه سداد عند الحاجة، وأنه لم يخذل أحدا فى الشارع طلب معونته. وكدت خشية من تورطى مع الضابط، والإهانة والشتائم التى لحقتنى، أصيح فى أعماقى: فى عرضك يامعلم. تحمى الشارع كله وأحد مساعديك يتعرض لهذا. ولكن ماذنبك؟!. فاليوم جمعة، ولاشك ستتأخر فى الحضور. ولكن لا، المعلم دائما يكون موجودا عندما تشتد الحاجة إليه. هكذا عودنا. عندما تتعطل العصارة لأى سبب، كأن تقف المكنة،

أو ينقطع السير الجلدي، أو يبطل «الموتور» ، تنشق عنه الأرض، كأنما غريزته تقوده إلى العمل الذى توقف.

وبينما كنت أحترق عاجزا عن فعل أى شيء. ولاأعرف كيف أتصرف. إنشقت الأرض عن المعلم، ونحن بين مصدق ومكذب، ولاح لنا بطلعته القوية القاهرة المطمئنة. ومن فوره تحدى هذه القوة على رؤوس الأشهاد:

ــ رخصة. لانعمل رخصا لبنوك . هع..

ردت إلى روحى، وإمتلأت بخب جارف للمعلم. وشعرت بأمان لأنى أعمل فى كنفه. إشتد وهج الشمس وإن لم تحس به اللمة. وبدا جسد المعلم الأسمر تحت أشعة الشمس كجسد أسفنجى مشبع بالقار، وكلما إهتاج المعلم وإنتفش ظهر القار على السطح كأنما ينشع من قدر يفور، منذرا من يلمسه بسوء العاقبة.

وكان الشارع كله متحفزا لعجن الضابط. وفى غمرة هذا الإنفعال، تكلم صول عجوز طال سكوته:

ــ عيب يابدير.

لم يرد المعلم فتشجع الصول:

ــ إلبس هدومك وتعال معنا على القسم نتفاهم هناك.

ثم بعد برهة:

ــ عيب نتكلم فى الشارع.

ولم ينم عن المعلم مايشر بإستعداده لإستمرار النضال. ووضح أنه إكتفى بما ناله، وبدأ يمهد لإنهاء الجولة محتفظا لنفسه ببعض الأوراق الرابحة التى يستطيع أن يلعب بها مستقبلا، فهو لاشك يدرك أنه سيشرف إن عاجلا أو آجلا فى قسم الشرطة، وربما بين يدى هذا الضابط

لإستجوابه: لذلك سرعان ماصاح فى جمهور المشاهدين:
ـ ياأولاد الكلب . فرجة!!.
تقدم الصول متشجعا بما أبداه المعلم من رغبته فى إنهاء الموقف:
ـ تعوفرنا منك كلمتان وترجع حالا .
لمعت عينا المعلم وبدا فيهما بقايا تحفز من الممكن أن يستثار وتشتعل المعركة:
ـ قسم؟. وأنا وش أقسام؟.
فرد الصول فى لهجة تساولية:
ـ إنت صغير يابدير. عيب الكلام هنا.
ـ طيب ياسيدى. أنت بائن عليك رجل طيب. يصح آجى؟ وشكلى مثل ماأنت شائف!.
وكأنما إعتبر الصول هذا رد إعتبار له ولقوته، فإنسحب مشيرا للضابط وقوته بالمسير. وهو يطلب من المعلم ضرورة الحضور غدا وأن هذا وعد شرف وكلام رجال.

(١٤)

لم أكن أدرى إن الطريق إلى شارع الخلا يؤدى إلى السجن. ولكن هذا ماحدث. فلم أكد أستقر فى صباح اليوم التالى خلف بنكى الصغير، حتى رفعتنى حراب الشتائم واللعنات، وإنهبدت فى عربة شرطة، دون أى فرصة لإعتراض، أو لإنتظار صاحب المحل. وهكذا وقع إنتقامهم على رأسى أنا.

وفى القسم حشرونى فى حجرة ضيقة، مرتفعة البنيان، أغلب الظن أنها مخصصة لتربية البق الذى يزحف فى طوابير على الحيطان بلونه الأحمر القمئ. ودهنت جدران الحجرة بدمه المراق، فبدت رائحتها خانقة. كانت الحجرة مزدحمة، لامكان لوقوف إنسان، وقد طلبوا منى أن أنتظر. وإذا طال الوقت ولم يسأل عنى أحد ولم أكن أتصور ذلك، هل سأقضى ليلتى هنا!!. وظننت أول الأمر أن النزلاء سيتناقصون، حتى يستطيع الباقون أن يناموا، ولكن الليل يتقدم والزبائن ترد. مشوهون ومشتبه بهم، وشحاذون، وكأنهم على موعد فى هذه الليلة. وكان لمسى لأحد من تلك المخلوقات، يبعث قشعريرة فى جسدى. ومع سريان الليل، نال التعب والإرهاق من جسمى ونفسى فتركت جسدى، يتسند كيفما شاء، وأصبحنا جميعا كتلة متلاصقة من اللحم والعرق اللزج، تساند بعضها بعضا، ويعلو من وسطها شخير. وتعلو فوقنا سحائب دخان التخميس، وتحرسنا طوابير البق اليقظة، وتبعث الرطوبة إلى عظامنا جدران صماء عالية وبلاط أرض باردة.

سببت المعلم ولعنته، فهو أولى منى بذلك المبيت الرهيب، فأنا ليـ لى فى الثور ولا فى الطحين. وطافت بذهنى ذكرى أبى، فلو كان حـ مامكثت هنا لحظة واحدة. أى شخص أرسله بورقة صغيرة لعبد التواب أفندى كاتب المحكمة، ومعارفه مثل الأرز، مخبرون وكتبة وعساكر يتمنون خدمته، فكل واحد منهم له عنده مصلحة.

فتح شرطى الباب. ناولنى بعض الطعام، ولسان حاله يطالب بالنصف، لم ينتظر، وأخذ حصته. تطلعت إلى العيون.. فازدردت ماسمحت به الظروف، وناولتهم الباقى. دبت العافية فى جسدى. لهج لسانى بشكر المعلم على صنيعه. وخجلت من نفسى لأنى لعنته دون صبر. وكأنما إستجاب للشكر، فقد فتح الباب ثانية، وعلمت أن محاميا فى إنتظارى قد وكله المعلم. حاول الأستاذ إخراجى فلم يفلح، فالليل تقدم ولابد من المبيت حتى الصباح لإستيفاء بعض الأوراق حين يحضر الموظفون وبقية العسكر.

دخلت الحشر ثانية. إستبد بى خاطر مخيف، كيف سأواجه الشارع غدا، سيشير إلى الجميع قائلين: «بات فى الحجز مع المجرمين». قد يكون هذا معقولا بالنسبة لهم، فكثير منهم قد جرب هذا المبيت. أما أنا، أفندى الشارع المتعلم فى المدارس، صحيح لم يعد يجدى ماتعلمته من جغرافيا وتاريخ وسائر العلوم، فالمطلوب إلمام بالقراءة والجمع والطرح، يكفى لمباشرة وظيفة قارىء خطاباتهم وكاتب حساباتهم، وهى بسيطة، خالية من أى تعقيد. وربما كنت قارىء الجرائد الوحيد فى الشارع. آى نعم بعض أصحاب المحلات يشترى جريدة يوميا، ولكنهم يكتفون بمطالعة العناوين ومشاهدة الصور. ومعلمنا لم أره أبدا يقرأ مقالا أو تفصيلا لخبر فى «الأخبار وآخر ساعة» اللذين يواظب على

شرائهما. كيف سأقابلهم، وماذا أقول لهم، ستشمت نجية، وستسقطنى البنت «لاإله إلا الله» من عينيها. أما كان الأجدر بى أن أقاوم ولاأذهب معهم. وهل كنت أستطيع؟!. أجدع بائع فيهم ركب عربة الشرطة وقضى فى ضيافتهم ليلة واثنتين. عزمت قبل أن أبرح سجنى ألا تطأ قدماى شارع الخلا إتقاء لما توهمته «فضيحة».

ولكن بقدمين تدفعهما الحاجة، وتعللا لنفسى أنى ذاهب لشكر المعلم على إهتمامه بى فى الحجز. ذهبت إلى الشارع تطالعنى النظرات من كل جانب. وتصدم أذنى النداءات. أتراها مظاهر السخرية، ولعنت نفسى لتخاذلى وحضورى إلى الشارع، إلا أنى فوجئت بنجية — عدوتى اللدود — تهش لى وتزغرد فرحا، وتقابلنى بالأحضان. ولم أتأكد إن كان هذا هزءً أم لا إلا عندما صاحت بصوتها المبحوح:

— ألف حمد لله على سلامتك. كلنا قلنا سى فوزى رجل. قدها وقدود. ثم مالت على عربتها وانتقت رمانة كبيرة، كسرتها وقدمتها لى، حمراء فى لون العقيق. إلتف حولى نفر من الشارع يسألوننى عن الحكاية. ولم أفلح فى منع عمال محلنا من إرسال أحدهم لإخبار المعلم الذى سارع بالحضور. وبأريحية أولاد البلد عزمنى على الغداء، وأكد لى أنه عندما يتركنى فى المحل فإن ذلك يعنى أنه يترك أثناء غيابه رجلا.

وعجبت لحديث الشارع، وكاد الكلام عن رجولتى يطغى على رجولة المعلم يوم تحدى قوة البوليس، رغم أنى لم أفعل شيئا يستحق ذلك.

أصبح أهل الشارع يكنون لى إحتراما غير الإحترام المستمد من أفنديتى. إحتراما مستمداً من جدعنتى. ألم يعد فى إستطاعتى المبيت فى أقسام الشرطة!!. وهكذا أصبحت أسير فى الشارع وقد وثقت بنفسى، وذاب بعض الخجل الذى كان يشوب معاملتى لهم.

وتناولت نظرتى الجديدة البنت «لاإله إلا الله». رأيتها غير جديرة بى، بنت كلب تبتسم لباعة كثيرين، فضلا عن ضمور صدرها، وعلى أية حال «لاإله إلا الله» مركونة لوقت زنقة. تذكرت سهير، ولكن الأمل ضعيف فى الحصول على لذة سريعة معها. إتجه فكرى للبنت حمدية إبنة بائع البخور، بنت صدرها يهوس، كثيرا مامدت يدها فيه تستخرج قرشا لشراء ماركة، كانت يدها كمن يضرب فى عجين خامر بلون قلب جوزة الهند، تغوص فى الثدى وتنزعها فتظهر معالمه رابية مطاطة. وردفاها عندما تغادرنى، وهى تمشى على الواحدة. وتطارحنى الإبتسام. وكان مايحجمنى عنها أنى علمت فى السوق أنها حبيبة ولد سماك، وهل يقف فى طريقى سماك!. لكم حلمت بثدييها وردفيها. وهل يعوقنى هذا السماك، إنها لم تخلق له، إن هذا الزفر لايعرف كيف يمارس الحب معها. وتبا لذوقها. ألم تجد غير سماك تبادله الحب. ربما أعجبتها سطوته فى السوق، أو لعله أهداها بعض النقود فجذبها إليه. وليكن فقد عزمت على إصطيادها.

ماأن تقدم الليل حتى تعللت وغادرت المحل فى طريقى إليها. سرت بجوار سور الإسعاف، الأرض مليئة بمخلفات السوق فى الصباح، عربات اليد تشقلبت على مقدماتها. أخذت أعمل الفكر وأنا فى طريقى إلى سوق السمك حيث يقع منزلهم، هل أترك الأمر للظروف؟، أم أدبر أخذها إلى مخزن القصب، وماأحلى الرقاد فوق قش القصب. ولكن كل واحد من العمال سيطلب دورا. هل آخذها خلف عربة من هذه العربات، ربما رفضت فالمكان قريب من منزلهم. إذا فأين آخذها والليل يتقدم؟!. طالعت عيناى فى الظلام قشر السمك المتخلف على البنوك كأعين تحدق فى تحد، وتفشت رائحة الزفارة بين جوانحى، وجعلتنى أشعر بالتقزز.

هبت ريح باردة محملة برطوبة وزفارة ماء السمك المراق. لم أكد أصفر للفتاة حتى إنقض على غريم، شخص لم أتبين ملامحه جيداً فى الظلام، شعره مهوش فى جميع الإتجاهات، يرتدى فوق جلباب قذر سترة كاكية مبللة رطبة. إرتمى على كقرموط هب من الوحل يبغى أن يوسخنى. وبكل قرف من هذا الوسخ طرحته أرضا فنهض لإستئناف النضال، وبكل حمية رغبتى فى الفتاة التى إشتدت وأخذت شكل العناد، إلتحمت مع شخص يدافع هو الآخر — فى الغالب — عن فتاة يعتبرها طوع يمينه، ولايصح الإقتراب منها. ولاأستطيع الزعم أن أحدنا فاز فى هذا العراك، ولكن ماأستطيع قوله هو أننى بهذا قد وضعت لنفسى حقا فى الفتاة، وأنه من الآن سيراعى حسابى إذا سرت معها، خاصة وقد كشفت فى نهاية المعركة عن شخصيتى بأنى تابع للمعلم بدير.

فى الصباح منيت نفسى بالأمانى الجميلة مع حمدية، ولاشك أنها ستمنحنى الكثير، ألم أكافح من أجل نيلها؟!. إنشغلت بقية النهار بمشاكل خليل، فهو لم يكد يحضر حتى إختفى. وبالإستعلام عنه إتضح أنه سار

فى لمة كانت تمر أمام المحل. مخبر قبض على حرامى وحوله صبية ونساء، وخليل طبعاً قاسم مشترك فى كل زفة، يتبعها ليعرف أخبارها، الولد سرق ولا لأ، ماذا فعلوا به، من هذه ومن تلك، وكأنه صحفى متطوع لوجه الله. وعندما عاتبته لغيابه دون مبرر. غمز لى بعينه العمشاء وقال:

– أبداً والله ياسى فوزى.

ولم أرد عليه. فغمز لى مرة أخرى يفهمنى:

– أصل الجو كان ماشيا معهم.

كان خليل على غرام شديد مع بنت جزارة، دكانها فى آخر شارع الخلا. ورغم أن الغرام كان من طرفه فقط، إلا أنه كان مصراً عليه، ولايفتأ يعاكسها:

– نفسى فى «حتة» من اللية. والنبى لحمه أبيض مثل الفل.

وكثيراً ماحذرته. فهو ليس ندا لها، فهى فتاة عفية، وأقلها ضربة منها تطيره، وإذا تهورت وهفته ساطورا يبقى الله يرحمه. كان يغمز لى ويقول بثقة:

– من هذا. والذى خلقك أنا..طيب صلى على النبى..

ولما كان النهار قد إنتصف دون أن نعمل شيئا، سارعت بإرساله لشراء لوازم المحل. وكان خليل يسر جداً عندما أثق به وأعطيه نقودا لشراء حاجة، وأستلم منه مايحضره من بضاعة ومن باق دون أن أعد وراءه أو أحاسبه. كان يكاد يقبلنى، وتغرورق عيناه بالدموع. فالمعلم لايثق به مطلقا، ولايعطيه نقودا كثيرة فى يده، معتبرا إياه عبيطا، وكذلك عامله بقية العمال. أما هو فلم يكن يزد عندما يتعرض لهذه المعاملة، عن أن يقول لى:

– والنبى أنا أشترى بلداً .الله. عيب. عيب ياسى فوزى.



أغلقنا المحل بعد إنتصاف الليل. أومأ إلى المعلم أنه يريدنى. أشرت إلى أجفانى المتثاقلة. فصاح:

– حالا تصحصح.

– يعنى أين العزم.

– واحد صاحبنا راح نجبر بخاطره.

إخترقنا أوحال ومستنقعات سوق السمك. وفى إحدى حاراته دلفنا. ويبدو أن هذه الحارة مخصصة لصناعة وبيع المخللات. إختفى أسفل مبانيها خلف براميل المخلل الخشبية القاتمة، تحيط بها الشنابر الحديدية الصدئة. كانت البراميل مرصوصة فوق بعضها بعضا، تخال من كثرتها وعدم إستواء رصتها أنها ستتدحرج بين لحظة وأخرى. منظرها جملة يذكرك بمراكب القراصنة فى الأفلام الأمريكية. غير أن رائحة المخلل التى تنفذ من البراميل، ومن طين الأرض المعجون بمائه، وطوب أعالى البيوت الذى تجرد من بياضه بفعل الرطوبة فبدت حمرته داكنة. كل هذا ينزعك من مركب القراصنة إلى حارتنا العتيقة.

خطا المعلم بصعوبة بين برميلين فوجدنا فتحة باب، ظهرت عليه زينة خفيفة، سعف نخيل على شكل قوس، رشقت فيه أزهار ذابلة. دلفنا من الباب، فوجدنا أنفسنا فى قاعة رطبة. وضح من تشقق الجدران وسقوط بياضها، ومن إنحدار أرضها الترابية وإعوجاجها، ومن رائحة

المخلل المعتقة التى تشع من جوانبها، أننا فى معمل مخلل أخلى حديثا.

وإستطعت من بين غيوم الأنفاس المحلقة فى جو رطب أن أتبين منصة تتهادى عليها راقصة. بضعة براميل، عليها لوح ضخم من الحديد، يدب فوقه حذاء بكعب عال، فتحدث فرقعة فوق الحديد، وتنبعث طقطقة من البراميل. أحسست بالدفء لإقترابى من الناس. رحبوا جميعا بالمعلم، وبى. وإحتفاء به غيروا ماء الجوزة، وإستبدلوا جمر القوالح المتوهج، ونفخ صبى غابة الجوزة مسلكا إياها.

إندمج المعلم مع الجو الجديد. إنتفخت عيناه واحمرتا . وشاركهم ضحكهم الأجش. عزموا على بالجوزة كثيرا وأنا أعتذر فى أدب وأكتفى بالتطلع إلى الراقصة. كانت امرأة يصعب تقدير سنها، نضوجها يقطع أنها لاتقل عن الثلاثين بحال، وجهها به ملاحة، ولكنها ليست مستمدة من تقاطيعه الدقيقة، بل من روحها العذبة وهى تبتسم فى رقة آسرة، لكل مناد، وكل معجب، والجميع هنا معجبون، لحظها الفتان يشع الدفء والإطمئنان، تشعر من أول نظرة إليها أنك تعرفها من قبل، عيناها سوداوان، زادهما الكحل الأسود فتنة، وجهها ناصع البياض، شعرها فاحم طويل، يتمايل معها، تنثنى بقدر، وتستقيم بسرعة، كأنها تخشى أن ينزلق لحمها. وهى معذورة فى هذا، فجسدها يميل إلى الإمتلاء قليلا، وعند الإنحناء أكثر من اللازم تبرز عيوبه. صدرها وردفاها فاتنان بما فيه الكفاية لإثارة الناس هنا.

ـ إدلع ياولد.

ـ حالا الكيف يشعشع دماغه.

وجاء صوتها رقيقا حالما دون كلفة، له حلاوة تدغدغ الحواس:

ـ تأخرتوا عليَّ.

وصاح أكثر من شهم:

– من عينينا ياجميل.

ثوان، وكانت الجوزة فى طريقها إلى المسرح. وأخذت صاحبتنا تدخن وهى مستمرة فى الرقص. أضاءت نار حجر الجوزة أمام وجهها الجميل، فصبغته بلون أحمر وردى كخجل العذارى. إستمرت تجذب الأنفاس حتى قاربت أن تفقد الوعى، فتركت الغابة وتفرغت للرقص. خفت حركتها وإزدادت رشاقتها كأنها طيف يتمايل. وبانت وسط سحب الدخان الأبيض كأنها إمرأة عارية ترقص وقد تلفعت بغلالة رقيقة هفهافة تتمايل بإنسجام مع حركاتها اللطيفة.

– ياسلام ياعطا.

– «شوية» من عندك والنبى.

ثم بعد قليل:

– ليلتك أنس ياأستاذ عصرة. وكأنما كان هذا أمراً للأستاذ عصران، فما لبث أن إعتدل بالأكرديون، وبعث نغماته على الواحدة، وتجاوبت معه عطيات. تصاعدت الآهات حولها فوقفت فوق المسرح رافعة يديها إلى أعلى، وبدت كأنها تشد شيئا إليها، ثم نظرت إلى بطنها العارية وأخذت تثنيها بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف. إستمرت على هذا المنوال، وتحرك بطنها كيفما شاءت وبمقدرة ومهارة وسرعة.

إستغرقنى المشهد وشدنى إليه، فركزت بصرى على بطنها الخامرة وسرتها الجميلة الشهية. تخدرت حواسى تماماً ولم يكن يخرجنى عن الإنسجام غير بحات المعلم بدير:

– تأخد لك نفسا.

– إسترجل مرة.

وأنا غير ملتفت إليه، مأخوذا بما أمامى، غير مبال بضحكات السخرية والإستهجان:

ـ صغير على الحشيش يامعلم بدير.

ـ الكحة تقطع نفسه.

ولما لم تثمر محاولاتهم. إرتفع صوت المعلم بدير:

ـ ليلتك ورد ياعطا. والنبى سبلى شوية.

إستجاب الأكرديون على الفور بحركة إيقاع خفيفة تنسجم مع حركة غلق وفتح رمش العين. إستعدت عطا، فخلعت حذاءها . ضج الحاضرون من النشوة وهم يرون قدمها العاجى الممشوق. دبت بقدميها على التتابع مظهرة إستدارة فخذيها. وكأنما تيقنت من إنجذاب جميع الحاضرين إليها، فتعاجبت بوجهها ثم دخلت فى حركة الأكرديون وهى تسبل عينيها، تفتحهما وتغلقهما بسرعة مصاحبة ذلك بمط شفتيها، ثم بالضغط عليهما، كمن تلوك شيئا أحيانا ومن تمص شيئا أحيانا أخرى. إستباح الجميع لأنفسهم حق مدحها بطريقة تخال معها أن كلا منهم مختليا بها فى فراش واحد.

إلتفت إلى غابة تلكزنى فى خدى، والمعلم يقول كالتائه:

ـ خذ ... تعرف تتغذى.

لعنته فى نفسى فقد ضيع على بهذه اللفتة فرصة العمر، فما أن نظرت إلى المسرح حتى كانت عطا قد إنزرعت فاتحة رجليها فى إتجاهين متضادين، ولاشك أن فى قفزتها وجلوسها على هذا النحو قد بان الكثير. أخذت أتأملها وهى تتأود واضعة رأسها على حجر العريس حينا وعلى حجر العروسة حينا آخر. أخذت تغنى وهى فى وضعها هذا:

ـ قبل الحفلة، تيك تيك تم. وبعد الحفلة، تيك تيك تم.

ولم تغير هذه الألفاظ حتى إنتهت من رقصتها. تنغمها بكافة الأناغيم المخجلة، والناس يرجونها أن تبقى، ولكنها من التعب والعرق إختفت بسرعة حتى لاتستجيب لإلحاحهم.

بعد قليل فوجئت بها تجلس بجوارى. ياللسعادة. إنضمت الحورية إلى شلة المعلم، وفى يدها فنجان قهوة، تستعد لتعمير دماغها من الأنفاس المعبقة. إستبدلت بدلة الرقص فستانا للسهرة، طويلا يغطى القدمين، عارى الأكتاف والظهر، لونه اللبنى زادها بهاء وفتنة، وبان على القرب، نحرها الأبيض الجذاب. تساءلت بينى وبين نفسى عما يدفع إمرأة بهذا الجمال إلى تلك المهنة المتعبة. لم أنتبه لما يدور على المسرح. ركزت نظراتى على الست عطيات وهى تبتسم للجميع وتوزع علينا دلالها الأخاذ. ولم تلبث أن مدت إلى غابة الجوزة - فقد كنت المجاور لها - وهى تقول بصوت حلو كالعسل:

- مساء الخير.

- مساء النجف. مساء الحلاوة. مساء الورد والفل والياسمين.

ودون أن أعى تناولت الغابة فى فمى، وأحسست بما يشبه السرحان بإرتداد فلول من بقايا نصائح المنزل والمدرسة مذعورة!. إختفت رهبتى للحشيش أمام راحتها الطرية اللدنة. والشلة تضج بالضحك:

- قل ياأخى من الصبح. كنا نادينا عليها.

- ياجماعة الشاب معذور. حد يكسف الشرباتات.

بدا على عطيات أنها لم تفهم شيئا. ولعلها ظنت الأمر لايزيد عن إطراء لها، فزادت إبتسامتها إتساعا. أما أنا فقد أحسست أن صدرى ينخلع مع هذه الأنفاس. ثم زاد سعير النار فى جوفى، وشعرت كأن بداخلى لغما يجاهد فى الإنفجار. وإحتقن وجهى. وأدرك المعلم مابى فاستأذن من

الجماعة وقام مصافحا، وهم يلحون فى البقاء. ومالن غادرنا باب القاعة حتى تقيأت مفرغا كل مافى جوفى. قال المعلم:

— خفت تكسفنا.

ثم فى حنان بالغ:

— ولا يهمك. أول مرة هكذا. بكره تعتاد عليه.

قصد المعلم شارع العباسى فى طريقه إلى منزله. ومشيت أنا فى شارع جامع القهوجى. كان جسدى متعبا مكدودا، فجلست على عتبة جامع الكنانى أستريح. كان كل من فى المسجد يتهيأ لصلاة الفجر. لمحت بصيصا من النور يتراقص فى مخزن القصب. فتح لى حندق مستغربا، فلما عرف أنى كنت مع المعلم، شهق، ثم إستدرك داعيا إياى إلى الدخول من البرد، فلم يبق إلا ساعات على إنبلاج الصباح ونعود معا إلى المحل. دخلت وليس فى نيتى أن أمكث أكثر من الوقت اللازم لإفاقتى، حتى يمكننى مواجهة من بالمنزل، فلاشك أن والدتى ساهرة تنتظر أوبتى، وستقرعنى بكلام فارغ على آخر الليل، أين كنت، وأليس لك بيت يلمك، ربنا يرزقك بمصيبة تأخذ أجلك وتريحنى، كل الناس أولادهم فالحة وأنا أولادى الوكسة والخيبة راكباهم. وآه لو أدركت أننى مسطول، ستكون المصيبة أعظم.

شعرت بجوع شديد يمزق أحشائى. هممت أن أذهب إلى المنزل، مفضلا إسكات عواء بطنى، ولتقرعنى أمى بالشتائم كما تريد. ولكنى لن أجد بالمنزل طعاما جاهزا إلا فى الصباح. وتذكرت الفول المدمس المقرف، كنت أحس برغبة جارفة لأكل عظيم. تحسست الإثنى عشر قرشا، ومنيت نفسى بأكلة شهية أثناء النهار.

طغت على الرغبة فى النعاس، فتوسدت قش القصب. أحس حندق

برغبتى فى النوم، فناولنى قميصا قديما للغطاء. أخذته شاكراً، وسرعان ماشملنى الكرى.

(١٧)

مع تعاقب الفصول يتغير شارع الخلا وتتبدل ألوانه. إختفى البطيخ المشجر. ولم تعد تنفذ إلى الأنوف الرائحة اللطيفة التى تصاحب الشمام الإسماعيلى. حَلَّ الشتاء ببرتقاله الأخضر الزاهى. وثمة بلح أسود لامع، وبشائر رمان بلون خمرى مجزع. ومع تقدم الشتاء يصفر البرتقال. ويظهر الرمان إحمراره. يتفوق عليه فى لونه التفاح الجميل، وإن كان يتعزز ويخفى نفسه فى غلالة رقيقة من الورق الأبيض أو الأزرق. وإختفت عناقيد العنب. وأصبحت العربات التى يزدحم بها شارع الخلا تمتلىء بفاكهة الفصل الجديد. تزاحمها عربات الخيار المتطفلة، والأغلب أنها نازحة من السوق القريب. ظهر الموز أكثر رسوخا عنه فى أواخر الخريف، وأصبح من المألوف أن ترى سباطاته تموج بها عربات شارع العباسى. وإختفت بسرعة كما ظهرت بسرعة الفاكهة النيلية كالجوافة التى كانت تزدان بها العربات كالدرر.

بينما أكحل العين بمنظر عربات الفاكهة الفريد. جاءنى رجل ضعيف البصر، يطلب فكة جنيه، فأعطيته ماطلب. فوجئت بربع جنيه نساه الرجل ومضى، يافتاح ياعليم، رزقك وصلك. بعد تردد ناديت الرجل، أعطيته الربع جنيه فى غيظ:

ــ خل بالك من نفسك يارجل أنت.

وبينما هو يتمتم شاكرا. كنت أردد متحسرا:

ــ لو لم تكن رجلا كركوبا..؟!

حضر المعلم مبكرا. أثار ذلك دهشتى. فالساعة لم تتجاوز العاشرة. نحانى عن الكيس، فأخذ قلق غامض يزحف إلى نفسى، ففى الأيام الأخيرة أصبح يكثر من جلوسه على الكيس. أفرحنى هذا أول الأمر. كنت أنعم ببعض الراحة. ولكن توجسا مريراً أخذ ينمو بين جوانحى. وأصبحت أخشى أن ينحينى عن كرسى الكيس نهائيا. فملابسى لم تعد صالحة له . لم تعد تعرف طريقها إلى الكواء. فضلا عن تقادمها وكثرة البقع فيها. وأخذ المعلم يطلب منى أن أقف مع حندق، أساعده فى جمع الماركات. وأحيانا يرسلنى فى شراء شوبات للمحل. ضايقنى جدا أن أذهب لشراء شىء. ثم لم يلبث المعلم أن أخذ يرسلنى ــ وهو يعلن أسفه ــ أشترى له فطوره. حز هذا فى نفسى كثيرا. إعتبرت الأمر إهانة شخصية. بعد تفكير مضن، متصل، إعتبرته أمرا عاديا فى محل، وفى سوق، القاضى يخدم. حدثت نفسى كثيرا أن أضع حدا لهذه المشاوير، حتى لو تركت المحل بسببها. ولكن هذا لم يحدث أبدا.

وقفت خلف المعلم. يعلو الراديو رأسى تماما. أصغى لما يقول. ولقد أكسبتنى الوقفة قريبا من الراديو ثقافات جديدة. أصبحت خبيرا فى الأغانى القديمة والموشحات. فأنا أسمع كل شىء. جميع البرامج الصابح منها والمعاد، والأحاديث، والقرآن الذى لم أصغ إليه مرة خارج المحل. الشىء الوحيد الممنوع سماعه هو نشرات الأخبار. كأن بينهم جميعا معاهدة سرية على ذلك. ماأن يعلن المذيع عن نشرة أخبار، حتى يسارع أحدهم بسرعة البرق لتغيير المحطة. وطغى ماتعلمته من الراديو على كل ماتعلمته قبل ذلك.

تجمع حول المعلم شلة من أهل الشارع، فأخذ يفاخر ويباهى

كعادته، وإن كانت عينه مفتوحة جيداً على من يتعامل معه منهم، فالناس هنا يجمعون بين الحيطة والحذر اللازمين لمعاملاتهم فى السوق، وبين البراءة والسذاجة بالقدر الذى يجعلك تطمئن إليهم وتحب حديثهم. وبينما المعلم نازلا فى المباهاة:

– أنا دائما أبدأ بالجديد والكل يقلدنى.

كنت أشعر بالزهو والتفوق على هذا المعلم الذى يدعى الحذق، وإن كنت لم أشك لحظة فى أن له منه نصيب، ونصيب كبير. إلا أن مبعث زهوى هو تمكنى من الضحك على ذقن هذا المعلم. ألم أعطى لنفسى علاوة وهو الذى يقتطع من أجور العمال لأوهى سبب.

جذب إنتباهنا جميعاً صوت إرتطام شئ بالأرض. علت همهمات:

– ياساتر أستر يارب.

كبا جواد أمام عصير الحسين. ودائماً يحدث هذا. ومع ذلك لم تكف الخيل عن المسير. ولكن ماذنب الخيل وهى لاتملك أعنتها؟!. فأمام عصير الحسين، وفى منتصف الشارع، توجد خمس «برايز» ضخمة تغطى البالوعات فى المفارق والحصان لايقع أثناء إلتقاطه «البريزة» ولكن لأنها معوجة فى فتحة المجارى. والطين الذى يغطى الشارع، يرفع بين آونة وأخرى من عليها، مما يجعلها ملساء، بالإضافة إلى سطحها الحديدى ذى المربعات الصغيرة المجلو من كثرة الاحتكاك . كل ذلك يجعل حوافر الخيل تنزلق وتقع الحوادث.

ذهب المعلم لمقهاه. وجلست مكانه أفكر. خيل إلى أنى أحسست برغبته فى عدم وجودى على الكيس. فكرت فى ترك المحل بدلا من الإنتظار حتى يطردنى. شط بى الخيال، فخلت إمتناع المعلم عن الإستغناء عنى

مرده لخجل أو حياء، وأنه لابد مقدم على ذلك عندما تسنح له فرصة.
ولكن، عندما تذكرت سهراتي معه، وإنسجامه، وإرتياحه لي.
عجبت لهذا التفكير، وفسرته بأنه تشاؤم لامبرر له.

طردت أفكاري المزعجة. وشغلت نفسي بالإلتفات إلى العمال. وجدت خليل قد وضع إصبعه في فمه. وهو لايفعل ذلك إلا إذا إعتراه غضب شديد. وإذا كلمه أحد وهو على هذا الحال، خرج زعيقه كبح البط.

وخليل لايؤدي عملا محدداً، ولانعرف له وظيفة في المحل. ولكن لاتدهش إذا رأيته منغمساً في عمل ما. صنع مرة شربات مانجو، ثم صاح في تيه:

- من يعرف يعملها. حرام لما حندق يحط يده فيها. «عربجي» عيب عل‍. ثم يغمز بعينه العمشاء، متصنعاً إستنشاق رائحة نفاذة بأنفه المحدودب، محركا شفاهه التي لامعالم لها:

- عيب. أنا حلواني. ياسي فوزي. والذي بني مصر في الأصل حلواني.

ورغم تفاخره هذا، فقد لايلمس المانجو حتى يكاد ينتهي موسمها. وكثيراً ماكان يلح عليه حندق ليعمل الشربات، لإنشغاله وباقي العمال، فيرفض مولياً إياه ظهره، ويذهب إلى مكان لانعرفه، ودون أن يتوقع أحد حضوره نجده أمامنا.

وخليل يتلاشى في حضور المعلم بدير. لانسمع له صوتاً مطلقاً. إذا أمره نفذ فوراً. إذا خطأه لم يرد. يخافه جداً. لايعمل له ألف حساب فقط، بل يضطرب لمجرد أن يطلب منه شيئا، أو حتى ينبهه لمراعاة شيء. إن مجرد تبادله الكلام مع المعلم بدير في حد ذاته مشقة كبيرة بالنسبة له، دونها طلوع الجبال. أما إذا غاب المعلم بدير، تفتح إحدى «برايز» الشارع وتختفي فيها وداعته، ويحل محلها رجل غضنفر. والجميع لايهابونه ولايعملون له أدنى حساب. فهو في نظرهم أبله ولايخشون أن يدس لهم عند أخيه، فهو أقل من ذلك. إلا أن بلاهته

تسبب ضيقا للعمال، فلسانه السليط لايكف عن إيلامهم. وعندما يكون اللسان سليطا ومن أبله، ولاتوجد معاملة بالمثل، فهو مهما كان وضعه «أخ للمعلم»، فإن الألم يصبح عظيما. وكان خليل أول الأمر يهابني، لكوني أفنديا، فعاملني بإحترام. ولكن يبدو أن طول العشرة، وإختلاطي بهم، قد أوجد نوعا من الألفة، أباح لخليل – أحيانا – أن يزعق في وجهي، دون شتائم. ولم أكن أسكت له بطبيعة الحال. ولكن هاهو اليوم قد زاد الأمر معي. طلب مني أن أنتبه إلى الدرج بطريقة غير لائقة، بينما كنت مشغولا مع زبونة راقصة، تسكن في الجوار. لم أستطع أن أرد عليه في الحال. وعندما غادرتني المرأة كنت حانقا، وإن كان دمي ليس فائرا. بحثت عنه لأعنفه فلم أجده. قضيت بقية النهار ساهما واجما، وأنا لاأفتأ أردد في نفسي:

– حتى أنت ياخليل

(١٨)

لاتملى ياعزيزتى. الوقت مبكر. بعد قليل سوف تعتادين. هاقد زحزحت مقعدك إلى الخلف. أعلم تماما مايضايقك. قاعدة الكرسى الخشبية ليست لينة، تؤذى لحمك الطرى. ليس هذا فقط مايضايقك، فقاعدة الكرسى مكونة من ثلاث قطع خشبية، الأولى مساميرها «مهوية»، تسمح لها بالتحرك، وكثيرا ماسينحشر لحمك بين قطعتين، حتى تعتادى كيف تتفادين ذلك. لاتعجبى فأنا مدرب على الجلوس مكانك. مقعدتى تعرف مكانها جيدا. أعرف كيف أجلس وقتا طويلا دون ملل، وأعرف كيف أجلس دون أن يصيبنى خدر.

ماذا أرى؟. لقد إمتلأت نفسك بالضجر، هل تضايقت من أسئلة الناس، ألا فاعلمى أنك تجلسين فى مكان عام، ولابد أن يكون لك بعض ميزاته ، فأنت ساعة ميدان ناطقة، ترد على كل سائل، بعضهم يريد معرفة الوقت ليمضى إلى عمله، والبعض يريد ضبط ساعته، والصبية يسألون لأنهم لايسألون عن شىء آخر، لذلك فهم يستسهلون السؤال عن الساعة.

وأنت ياعزيزتى عسكرى مرور، يسألك راكبو العربات عن الطريق إلى سندوب، ويسألك زوار المدينة عن عناوين يجهلون الطريق إليها. وأنت محطة أتوبيس، يسألك الناس عن مواعيد مرور العربات، وهل بقى على العربة المنتظرة كثيرا، ويسألونك عن أماكن وقوفها بالضبط، وعن

إتجاهات سيرها. وأنت ياعزيزتي صندوق بريد، ليس صندوق إرسال خطابات، بل صندوق إستلامها. يودع عندك الموظف خطابات أهل الشارع، ومن لايعرف مكانهم فى الحارات القريبة، تتولين أنت تسليمها لأصحابها عندما يمرون بك، أو تتكرمين بعمل خدمة، وتبعثى بها إليهم.
ثم أنت كاتبة حسابات لأى عابر سبيل. فلاح يسألك:
– بخمسة ونصف بنا، وثمانية سردينا، وبأربع صاغات وتعريفة برتقالا، يعوزنى كم من الربع جنيه، ثم يحملق بعينيه، كأنك إغتصبت ماله ويقول:
– لكن أنا مامعى إلا ستة قروش!!.
وأنت قارئة أوراق بالية مطموسة الكلمات فى أيدى سيدات عجائز.
وأحياناً كاتبة خطابات لمن يسألك، تحملينها قدرا من الأشواق أو العتاب، دون معرفة حميمة بمن سألك ودون معرفة بذويه.
وعليك ألا تردى شحاذا يسألك صدقة. أعلم أنك لاتستطيعين التصرف فى النقود التى أمامك، ولكن الشحاذ لن يقنع بذلك، وعليك إذا أردت أن تفلتى من إلحاحه أن تأمرى له بقليل من العصير.
وأنت مطالبة بسماع همس رجل عجوز، وأحياناً شاب على سفر، فقد حافظته ويجمع نقوداً لمواصلة سفره. وأرجوك ألاتجزعى من رجل يكلمك بجرأة دون أن يشترى أى ماركة:
–آمرى لنا بشوية عصير.
ولاتتضايقى من قروية تقف أمامك كالبلهاء، تظن أنك بعتها «مجرد الماركة» فتأخذ فى النظر إليها دون معنى، وأخيراً تشير إلى العصير وتقول فى رخامة:
– من هذا..!
ولاتتضايقى من رجل يقف فى خجل، يشترى نصف ماركة بنصف قرش،

ويعانى من الإحراج.

ربما لكونك فتاة، قد يعفونك من بعض هذه المهام، ولكنى لاأعتقد أن هذا سيستمر طويلا. لكم أشفق عليك من هذه الجلسة. تذكرت جلستى مكانها، وتزنيقى على العمال، حتى لايأخذوا نقودا من الزبائن فى غفلة منى. ترى، هل ستستطيعين ملاحظتى؟!. لاأظن أنه سيمكنك متابعتى، فما أسهل إجتذاب الفلاحين دون شراء ماركات، وإلقاء نقودهم فى جيبى.

كانت وقفة البنك تقلقنى، وإحتمال تعرضى لأنظار بعض أصدقائى وزملائى الذين أكملوا مرحلتهم الثانوية. بعضهم فى طريقه للوظيفة، والآخر إلى الجامعة. كما أن الشغل هنا متعب، يقف الإنسان على قدميه طوال الوقت، وسط الماء والرطوبة. طنين العصارة أصبح أكثر قربا منى، يكاد يفلق رأسى. ومع ذلك تمنيت أن أعمل على العصارة، فطنينها أهون عندى من الوقوف على البنك والتعرض للناس. ماذا يكون الحال لو رأتنى سهير هكذا. خطر لى أن أترك المحل وأبحث عن عمل لائق، ولكن من يأوينى حتى أجد هذا العمل. منزلى إنقطعت عنه بعد كثرة السهر، وشدة حاجتى لنقودى جعلتنى أصطدم بوالدتى، فتركت لها المنزل إلى غير رجعة.

نظرت لاشعوريا إلى الفتاة، فوجدتها مشغولة فى عد الفكة. تحسرت على شخصى الذى أصبح خبيرا فى عد الفكة. أضع يدى فى الدرج، أقبض على بعض القروش. فى أغلب الأحيان يكون مجموعها هو الرقم الذى أريده. ومع ذلك تعلمت مع الشغل أن عدّ الفكة مرتين واجب. وبعد أن كنت أمتحن النقود الفضية على الرخامة، أصبحت أعرفها من شكلها، وإن كنت أحيانا أستعمل الرخامة للتدليل على براعتى. كذلك

أصبحت خبيرا فى تصريف النقود الماسحة. الشيوخ رغم ضعف بصرهم يعرفون القطعة المطموسة، يقربونها من أعينهم جيدا، ثم يمسحون عليها بأصابعهم. أما الفلاحون فيجرون عمليات فحص دقيقة، حتى للنقود الجيدة، وعند أقل شبهة يردون النقود فى الحال. أحسن من أعطيها لهم هم الأفندية أولاد البلد. وأحيانا كنت أغتاظ من الفلاحين والطاعنين فى السن وكذا سيدات الملاءات اللف، وأصر على تبليعهم قرشا ماسحا أو شلنا مغشوشا، ماعلى إلا أن أكثر من الفكة للزبون المختار وأدس بينها عدة قروش ماسحة، فيقوم بإرجاع واحد أو إثنين، ويخجل أن يرد الثالث، أما إذا أعاده، فأتصنع الغضب والثورة، وأسب هذا البيع الذى ينشف الريق، فيخجل الزبون ويأخذه ويمضى. أتراك قد وصلت إلى هذه الفنون!!.

قبيل الغروب تركت المحل بحجة تناول لقمة. سرت فى شارع العباسى أفرج عن نفسى المكروبة. ماذا ستقول عنى الفتيات عندما ترينني هكذا، لن يكون لى مكان بينهن. على أن اكتفى بالبنت «لاإله إلا الله» وبنت بائع البخور وماأشبه. ولكن أيجوز لمثلى؟!. عرجت على حارة توصل إلى ميدان الطميهى، دون أن أقصد شيئا معينا. أخذت أتصفح المارة محاولا قراءة الوجوه. وأخذت أتأمل الدكاكين على الصفين. طالعتنى دكانة الدهمشاوى برائحة عطارتها القديمة، والشمعدان المدلى من سقفها ذى المنور الشمسى، أرضيتها الخشبية تنزل لها بسلالم. قفزت إلى ذهنى أسماء عطارتها الغريبة، فسوخ، حبهان، تنكار، شعرة الفيل. ولست أدرى لماذا ذكرتنى دكانة الدهمشاوى بشمعدانها المعلق، ورائحة القدم تفوح بين جنباتها، وطاقتها الشمسية، بدكانة السيد أحمد عبد الجواد فى ثلاثية نجيب محفوظ. آه، نجيب محفوظ، أين قصصه التى كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة، أين الساعات اللطيفة المليئة بالخيال

والبهجة.

أخذت أسير وكلى حسرة. لم أقترب مطلقا من أى طريق يفضى إلى العصارة، حتى إنتصف الليل أو كاد، فتسللت إلى المخزن، أستحث الرقاد.

(١٩)

إنتهى يوم عملنا الشاق، الرطب. فى المخزن لمست مبلغ حنق العمال على الفتاة الجديدة:

ــ بنت دين الـ.. ستجننى .

ــ ماشية على السنة قوى. مافى طلب يطلع إلا لما تقيده.

ــ ليت الأمر يقتصر على هذا.بكرة تطلع لنا قرونا.

تسلل فرح خبيث إلى نفسى. إلا أنى طيبت خاطرهم قائلا:

ــ ياجماعة صبركوا عليها. بكرة تأخد على السوق.

عاجلنى أحدهم بتأفف:

ــ ياأخى ربنا يأخذها. بكرة تشوف. إن ماسورت لك دماغها.

قلت:

ــ لاتنسوا أن المعلم زمانه قلب دماغها.

ويبدو أن دخول المعلم على الخط أربكهم، أو حيرهم، فلزموا الصمت.

علق أحدهم فى خفوت:

ــ ماذا يعوز المعلم ؟!.

تقدم الليل. أخذ كل منا فى توضيب مكانه بين أكوام القصب والقش والزعازيع. تدثرنا بملابس لنا قديمة. كنت مشتت الفكر والنفس، فرحت فى نوم عميق.

رأيت فيما يرى النائم أنى أعصر على العصارة.

إعتراني سرور لبعدى عن البنك المواجه للمارة. بينما أعصر تحولت يداى إلى عيدان من القصب. دخلت بين إسطوانتى العصارة. تدفق الدم غزيرا لطخ العصارة كلها. نظرت إلى الخارج فإذا السماء تمطر عصير قصب وتمر هندى. حولت بصرى إلى العصارة فوجدت عجبا. وجدت عمودى العصارة قد تحول أحدهما إلى رأس ثور هائج، والآخر إلى حمار بليد. الثور ينظر إلى فى شراهة، يريد أن يلتهمنى، وقد فغر فاه يلوك أشياء غريبة، قطع حديد صدئة، عقلة قصب، نقودا فضية، وورق سجائر مفضض، وأشياء أخرى لم أستطع تذكرها عندما أفقت من النوم. أما الحمار فكان ينظر إلى فى غباء، وهو يمضغ بعض الزعازيع. فجأة وجدت كلا منهما يهم بإفتراسى. حاولت الجرى فلم أستطع. إكتشفت بعد أن تملكنى الذعر، أن أصابع قدمى مثبتة فى قاعدة العصارة بمسامير قلاووظ. اقترب الرأسان منى. فى كل ثانية يتغير رسمهما إلى حيوانات غريبة شاذة لم أرها من قبل، أبرز صفاتها الوحشية والبشاعة، أنيابها طويلة، يسيل من أفواهها لعاب مقزز، أعينها مغلفة بالقذارة، لها مقدرة فذة على الفتك والإلتهام. صرخت بشدة، فوجئت بأهل المخزن جميعا يوقظننى. سارعوا إلى إفاقتى وأنا أهتز من النشيج. الجميع يسألوننى:

ــ ماالخبر..؟!

قلت فى تثاقل:

ــ كابوس.

ذهبت فى الصباح أفتح المحل وأكمل نوبتى. فالمحل تعمل به نوبتان، كل نوبة من أربعة عمال، إثنان فى المحل للعصارة والبنك، وإثنان فى المخزن لتنظيف القصب. تبدأ نوبتنا فى العمل بعد الظهر، وتظل تعمل حتى بعد ظهر اليوم التالى، فتأخذ فى العمل نوبة أخرى، وهكذا، نعمل

يوماً ونستريح يوماً. والقبض عن يوم العمل فقط.

تعمدت ألا أعمل مع حندق. إخترت فهمى، فهو مسل، لاتحس أثناء العمل معه بالوقت يمضى، ولايكاد يشعر بوجود الراديو. طوال وقفته على البنك يلاغى المارة خاصة النساء، لايفرق بين امرأة وأخرى، كلهن عنده سواء، كلهن طلاب متعة، أية غمزة أو إشارة أوضحكة، هى دعوة لنزهة، أى كلام يحتمل أكثر من معنى، يصدر عن إمرأة أوفتاة، ربما يراها للمرة الأولى، هو دعوة صريحة للفراش. ويروح يتحسر:

– لازم آجر أودة.

ثم يفيق لنفسه، فيزعق فى الزبائن:

– تعال ياأبى. سيبك منه (مشيراً إلى عصير الحسين).

بعد أن يبح صوته يميل ناحيتى قائلا:

ماذا أفعل يافوزى. لازم أصطاد الزبائن. ألاقى الزبون واقفا فى منتصف الشارع عينه زائغة، أفرقع له بالكوب. لازم أجمد قرشين للمعلم، حتى لايجد الدرج فاضيا. والزبائن الذين يصطادهم، لايسلمون من تريقته. فها هو فلاح يرفض كوبا لأنه ليس ممتلئا حتى حافته. عاجله فهمى بضربة من لسانه:

– أبنى لك دوراً ثانيا فوق الكوب!!.

وهذه فلاحة تصر على عدم شراء ماركة، وإعطائه النقود فى يده، رغم مراقبة فتاة الكيس لها:

– مالزوم الماركة ياأخى.. أنتما تجلسان معا..!

سرعان ماأشبعها بفحش القول، مما تحمر له الوجوه.

إستغرقنى دوران العصارة. وأوجعت رأسى بطنينها. أشرت لفهمى فلبى

على الفور. رفع صوت الراديو كي يصلنى رغم الضجيج. ثارت الفتاة وقامت تخفض الصوت. لم تكد تجلس حتى عاد الراديو إلى سيرته الأولى. إحتجت الفتاة. حاول فهمى أن يشرح لها بالكلمة والإشارة أن عامل العصارة لايمكنه السماع من ضجة المكنة . لم تقتنع ونهضت تخفض الصوت. كدت أغلى من الحنق عليها، وعلى أيامها السوداء. وتمنيت فى تلك اللحظة أن يأخذ الله العصارة وصاحبها، حتى لاأطأ هذا المكان ثانية، وأرى تلك الفتاة اللعينة. وكأنما إستجاب الله لأمنيتى، فقد وقفت المكنة فجأة. سارع فهمي لفحصها. إكتشف أن السير الجلدى قد إنقطع، ولابد من إستدعاء ميكانيكى، ولابد من فحص دقيق للمكنة . وقفت حركة المحل. ضربنا لخمة. لم نعرف ماذا يتعين علينا عمله بالضبط. هل ننتظر وصول المعلم أم نرسل فى طلبه. أشفقنا على أنفسنا من توبيخه، وخشينا أن يمنع عنا أجرنا فى هذا اليوم. فإيراد شربات البرتقال والتمر هندى لايعتد به. إستبدت بى أفكار كثيبة، ماذا لو توقفت العصارة بضعة أيام؟!.

ذهب فهمى يخبر المعلم، فتوبيخه أيسر جهدا من إنقطاع الأجر. بالهمة التى عرفت عنه أحضر ميكانيكيا لإصلاحها، ولعمل إصلاحات أخرى كان يود عملها من مدة. وهاهى الفرصة قد حانت، عطلة بعطلة. ومع إنتصاف النهار عادت العصارة تدور، ودارت معها قلوبنا فرحا. أحسست نحو المعلم بالإمتنان. لم تكد نوبتى تنتهى حتى طلب منى المعلم مساعدة العمال فى المخزن. ألا يكفى مالحقنى من تعب منذ الصباح؟. ذهبت وأمرى لله.

والمخزن حجرة معوجة البنيان، الحائط الأيمن بنى حديثا، يطالعك طوبه الأحمر دون بياض، تطل من بينه المونة كألسنة شامتة. الحائط

الأيسر محنى من القدم، بياضه متداع، وتتساقط منه ذرات الرمال والتراب. الجدار المقابل للباب به شق تشاهد منه مصنع الحلويات فى شارع عبد القادر. وقف عامل على طبلية خشبية يسند عود قصب إليها ويكشطه بسكين ضخم. وتفرغ عامل آخر لتنظيف القصب من القش ونزع الزعزوعة. تناولت سكيناً وأخذت فى كشط القصب. تصاعد فى المكان كشط القصب كنشارة خشب رقيقة مبتلة، تناثرت على ملابسى بزغبها ورطوبتها.

إنتبهت بعد قليل إلى خليل فى ركن من المخزن. جلس واضعاً رأسه بين ركبتيه، محيطا إياها بيديه. سألته عما به. بصعوبة رد على:

- ياسى فوزى سيبنى والنبى.

بعد مزيد من التودد قال والأسى يملأ عينيه:

- بنت عمى خطبت.

فى ثانية أدركت كل شئ. كانت إبنة عمه كثيراً ماتحضر إلى المحل، وكان يعترى خليل لمقدمها نشاط عجيب:

- على الله ياولد. إعصر لقمة نظيفة يافهمى.

ثم يستحثه على الإسراع، صائحاً بصوته (المبحوح):

- على الله ياولد.

ترى هل توجد من تحبه وهو على هذا الحال من دمامة الوجه؟!. والأدهى من هذا أنه عالة على إخوته. ولكن الذى أذهلنى أن له نفساً رقيقة هكذا.

عندما نال منى الإرهاق إستأذنت متعللا بقضاء حاجتى فى جامع الكنانى المقابل للمخزن. لم أكد أدخل حتى تمددت أرضا. كنا فى وقت بين العصر والمغرب والرواد قليلين. أحسست بلسعة برد، فنهضت، إحتميت

بالمنبر ونمت بجواره. سرح فكرى فى خليل.
وعجبت لمثله كيف يحب!.
إستمرأ جسدى الرقاد. ولم أرد على نداءات العمال تطلب منى الإسراع
ونويت أن أظل كما أنا حتى لو جاءنى ملاك من السماء.

رأسي ياحضرة الضابط.

صدر حديثا من مطبوعات ادب الجماهير

- سوق الكلمات مسرحية محمد صلاح صقر
- استئناس الفراغ شعر كريم عبد السلام
- ليلة ٣٠ فبراير شعر أشرف يوسف

تحت الطبع :

- الأسرى يقيمون المتاريس. الطبعة الخامسة فؤاد حجازى
- عنقودة وسَمُرة رواية للطلائع فؤاد حجازى
- الرقص على طبول مصرية رواية فؤاد حجازى
- الداية و الحانوتى مسرحية محمد صلاح صقر

صدر للمؤلف

****

قصص قصيرة :

* سلامات. أدب الجماهير. نوفمبر ١٩٦٩
* كراكيب. ٣ طبعات. أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٧٠ وسبتمبر ١٩٨٣ وفبراير ١٩٨٧
* سجناء لكل العصور. طبعتان. أدب الجماهير. يونيو ١٩٧٧ وأكتوبر ١٩٨٧
* الزمن المستباح.٣ طبعات. أدب الجماهير. مارس ١٩٧٨ وأغسطس ١٩٨٢ ومارس ١٩٨٦
* النيل ينبع من المقطم. مواهب. فبراير ١٩٨٥
* كحكة للصبى.دار النديم.يونيو ١٩٩٠

الرواية :

* شارع الخلاء.٣طبعات.أدب الجماهير. أكتوبر ١٩٦٨ وأكتوبر ١٩٧٩ وأكتوبر ٥.
* نافذة على بحر طناح. طبعتان. أدب الجماهير. فبراير ١٩٧٦. الثقافة الجديدة. ١٩٧٩
* المحاصرون. أدب الجماهير. أغسطس ١٩٧٢
* رجال وجبال ورصاص. أدب الجماهير. يونيو ١٩٧٣
* الأسرى يقيمون المتاريس. ٤ طبعات. أدب الجماهير. فبراير ١٩٧٦ ومايو ١٩٧٩ ويونيو ١٩٨٥ وسبتمبر ١٩٨٧
* القرفصاء. طبعتان. أدب الجماهير. مارس ١٩٧٨ وفبراير ١٩٩٢
* متهمون تحت الطلب. ٣ طبعات. أدب الجماهير. مايو ١٩٨١ ويناير ١٩٨٥. وزارة الثقافة بسوريا. ١٩٨٢
* العمرة – أدب الجماهير – أكتوبر ١٩٧٧ .

المسرح :

- الناس اللى مامعاهاش. مسرحيتان من فصل واحد. طبعتان. أدب الجماهير. أبريل ١٩٧٢ ومايو ١٩٨٤
- حاملات البلاليص. مسرحية فى ٣ فصول. أدب الجماهير. يونيو ١٩٨٦
- عفوا رئيس الديوان. ٥ مسرحيات من فصل واحد. أدب الجماهير مارس ١٩٨٧

أدب ذاتى :

- أوراق أدبية. أدب الجماهير. ديسمبر ١٩٨٠

أدب الطلائع :

- حلوان شامة. قصة طويلة. أدب الجماهير. طبعة أولى. فبراير ١٩٨٢
- حلوان شامة (حكاية الأمير سيف والأميرة شامة). رؤيا بالاسكندرية ودار آزال ببيروت. طبعة ثانية. فبراير ١٩٩٠
- حلوان شامة. أدب الجماهير. طبعة ثالثة. اكتوبر ١٩٩١
- أمن الذئاب. قصة طويلة. رؤيا. نوفمبر ١٩٨٨
- تعظيم سلام. قصص. أدب الجماهير. يونيو ١٩٨٩
- × تعظيم سلام . قصص إقليم شرق الدلتا الثقافى – مارس ٩٥ ط٢
- الأسد ينظر فى المرآة. قصص. الحقيقة. فبراير ١٩٩٠
- شجرة الدر تتلقى الأمانة. رواية. أدب الجماهير. مايو ١٩٩٠
- بنات رشيد. مسرحية. هيئة الكتاب. نوفمبر ١٩٩٠
- تمرد رئيسة البنائين. قصص. أدب الجماهير. اغسطس ١٩٩١
- تمرد رئيسة البنائين. قصص. يافا للدراسات والأبحاث. ١٩٩٢ ط٢
- براءة مارية القبطية. قصة طويلة. أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٩٢

أدب الجماهير

كتاب أدبى يشرف عليه:

فؤاد حجازى

المراسلات:

عمارة الفردوس - شارع أبو جلبة
جوار مدرسة الشيخ حسنين. المنصورة.

تليفون:

٣٤٧١٦٨
٠٥٠

رقم الإيداع : ٩٣٢٨ / ١٩٩٥
الترقيم الدولى : .I. S. B. N
977 - 00 - 0010 - 8